50

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة الحادية عشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٥

الشتلة والربيع

شتلات ناعمات،
في سويداء القلب حفظناها
ومن رحيق أرواحنا سقيناها
ومن العاصفات المهلكات حميناها
حتى إذا جاء الربيع،
شبّتْ وعلتْ واستوتْ
وحولها هَوَّمَ الفراش،
والقلب أنشد، والروح غرَّد
وجاءت الآمال تترى،
والأحلام تتهادى.

* * *

٢ الغرباء
فتح الله كولن

٢٥ منهج الإصلاح في القرآن
د. لطف الله خوجه

٦٠ حضارة العبودية والإبداع والجمال
د. محمد جكيب

غرباء العصر

في فاتحة هذا العدد من حراء، يكتب الأستاذ فتح الله كولن واحدة من أروع ما كتب من مقالات عن "الغرباء" من رجال الفكر والروح، وعن فلسفة الغربة، والاغتراب في هذا العصر البئيس. وهذه المقالة السلسة تكاد تذوب رقة، وتسيل عذوبة، وتتهادى بين يدي القارئ في ثوب من الشفافية العالية، والسماوية الهادية.. فالغريب عند "كولن" ليس من يفارق الأوطان وينأى عن الأهل والخلان، بل الغريب من هو في وطنه لا يبرح، وعن أهله وناسه لا ينأى، ومع ذلك فالغربة تسكن روحه، وتقيم في رأسه ووجدانه، لأن من حوله لا يفهمونه، ولا يريدون أن يفهموه.. فأفكاره لها من السمو والرفعة ما لا تستطيع أفكارهم أن تطالها، وروحه في طهرها ونزاهتها واستمداداتها الإلهية غريبة كذلك.. فأفقهم دون أفقه، وفهمهم دون فهمه.. إن هؤلاء من رجال الفكر والروح، لم يصلوا هذا المقام الرفيع إلا بعد جهد جهيد، ومكابدة وعناء، حتى نحلت أبدانهم وشحبت واصفرت وجوههم.. ثم جاءوا أقوامهم يعتصرون في أرواحهم مواجيدهم وأشواقهم، وفي رؤوسهم جديد أفكارهم، وعميق أفهامهم.. وذاك هو التجديد الروحي والفكري اللذان تحيا بهما الأمم، وتنهض بهما الشعوب.

وعبد المجيد بوشبكة في مقاله "المال بين أهل القرآن وأهل السلطان" يبين منافع المال عند أهل القرآن الذين يملكونه بأيديهم ولا يستحوذ على قلوبهم، ويسرد جملة من أسماء الصحابة الكرام ﷺ الذين يذكرهم التاريخ بأنهم كانوا أصحاب ثراء عظيم، لكنهم استخدموا ثراءهم في خدمة الأمة والدين.

وعن سبيل الرشد يكتب "عبد الحميد عشاق" قائلاً: "الرشد هو قمة وعي الإنسان واكتماله ونضجه وصمام الأمان من أوضاع التحلل والفساد"، ثم يستعرض كلمة "الرشد" ومكانتها من القرآن الكريم، مع الاسترسال بمعانيها حيثما جاءت من القرآن الكريم.

و"لطف الله خوجه" يكتب عن "منهج الإصلاح في القرآن"، مشيرًا إلى أن التغيير والإصلاح يبدأ من الإنسان نفسه، مستشهدًا بالآية الكريمة "حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وفي عنوان "من تجليات الجمالية السليمانية في القرآن الكريم"، يكتب "محمد إقبال عروي" عن الجوانب الجمالية التي تميز بها بلاط النبي سليمان عليه السلام إلى أن يقول: "وهذا الاتجاه التفسيري، حين ينجز هذه المهام العلمية التنموية، يكون قد اهتدى إلى قاعدة جوهرية من قواعد القرآن في العمران الإنساني نلخصها في العبارات الآتية "إعمال الجمال خير من إهماله".

ويكتب "أديب إبراهيم الدباغ" في مقاله "مرآة الروح"، عن حاجة المسلمين عمومًا إلى رجل الفكر الذي تشكل أفكاره مرآة يمكن أن نرى فيها روحنا وروح أمتنا، إلى أن يقول: "وكولن نفسه لا يعطينا أفكارًا جاهزة نقف عندها ولا نتخطاها، بل هو ينهضنا لنفكر معه ونشاركه التفكير، وربما استطعنا أن نكشف أفكارًا مرادفة من خلال مشاركتنا له".

و"محمد جكيب" يكتب مقالاً ممتعًا بعنوان "حضارة العبودية والإبداع والجمال"، فيقول: "حجاب المادة والرتابة مانع يمنع الإنسان من إدراك حقيقة العمل والسلوك، بل إن حجاب المادة يعمي قلب الإنسان عن الاحساس بذرات الوجود، فيتحول نبضه إلى مجرد حركة رتيبة لا تصور الحياة".

وفي الختام شكر الله تعالى الأستاذة الكرام الذين أسهموا في كتاباتهم في إنجاز هذا العدد من حراء، ولهم منا ألف تحية وشكر.

المحتويات

الغرباء / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
أسرار ربانية في عيون الأسماك / د. محمد السقا عيد (علوم)	٥
الاحتكاك الحضاري / د. خالد راتب (ثقافة وفن)	٩
المال بين أهل السلطان وأهل القرآن / د. عبد المجيد بوشبكة (قضايا فكرية)	١٢
السياسي الكبير نظام المُلك / د. عمر أنور الزبداني (تاريخ وحضارة)	١٦
كيف نتخذ سبيل الرشد سبيلا؟ / د. عبد الحميد عشاق (دراسات إسلامية)	٢٠
منهج الإصلاح في القرآن / د. لطف الله خوجه (دراسات إسلامية)	٢٥
التربية على فن إلقاء السؤال / د. نبيل طنطاني (تربية)	٢٨
لا نعرف المستحيل / د. حسن الأمراني (شعر)	٣٢
شهود الحال في القضاء العثماني / د. رمضان بالجي (تاريخ وحضارة)	٣٣
من تجليات الجمالية السليمانية في القرآن الكريم / د. محمد إقبال عروي (قضايا فكرية)	٣٧
الرُّطَب، مضادًّا حيويًّا وميسّرًا للإنجاب / د. عبد المجيد بلعابد (علوم)	٤٢
معاناة المفكرين / حراء (ألوان وظلال)	٤٤
مشروع الخدمة، المبادئ والمجالات / د. محمد خروبات (قضايا فكرية)	٤٥
الجرادة تحكي قصتها / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٥١
القرآن والكشوف العلمية، أية علاقة؟ / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٥٥
أشواق الأرض / حراء (ألوان وظلال)	٥٧
مرآة الروح / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٥٨
حضارة العبودية والإبداع والجمال / د. محمد جكيب (قضايا فكرية)	٦٠

www.hiramagazine.com

الغرباء

غريب أنت في هذه الدنيا،
فلا تضحك يا قلبُ لا تضحك، ابكِ. (يونس أمره)

١ الغرباء ثلة من أبطال القلوب وفدائيي المحبة، وقلة من القدسيين المجهولين. أنين متواصل هم، تأوّهات ممتدة لا تنتهي، حرقة أليمة تكوي الفؤاد كيًّا. إنهم عُشّاق حقيقة سامية وناشرو رسالة نبيلة. في سبيلها يتعرضون للأذى والضرب، ومن أجلها يُطرَدون عن الأبواب. تلفحهم عشرات المخاطر كل يوم، وتتهددهم إنذارات الموت كل لحظة، وتنهمر عليهم ألوان الإهانة والتحقير كل حين. تلك هي حياة الغرباء.

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وداره أو فارق أحبته وذويه، إنما الغريب من بات غير مفهوم في مجتمعه حالاً ومنهجًا وسلوكًا. فهو الحامل لأحلام سامية وغايات أخروية، وهو المضحّي بملذّاته الشخصية من أجل غيره، والمتألق بهمته العالية وعزيمته الخارقة. لذا فهو في تعارض دائم مع أبناء مجتمعه

في رؤاهم وعاداتهم، يتعرض للإنكار والاستغراب والإقصاء في كل ما يبدر منه.

فالجموع التي هبّ لنجدتها تهدده حينًا وتطرده عن الأبواب، وتبطش به حينًا آخر وترمي به في السجون، أو تذيقه مرارة التشريد من منفى إلى آخر، أو تقيم له مشانق الموت هاتفة "لا ترحموه! اقتلوه!"؛ وهو صوّال جوّال في هذا الجو الكالح الذي تنذر فيه مئات من الكوارث بالويل، يواجه موتًا جديدًا هنا، ويسعى لنجدة مظلوم هناك. يقتحم لُجج المخاطر كبطل مغوار حينًا، ويتصدى لألسنة اللهب المنتشرة بطلاً من أبطال الإطفاء حينًا، ويئنّ أنين الأم الحنون رحمة وإشفاقًا أحايين أخرى. فلا يملّ أخو الجفوة من الجفاء، ولا الغريب من الوفاء.

وقد يخالط الغريبَ شعورٌ من الوحدة والغربة -فيما يبدو للناظر- حين يعجز عن الاندماج مع مجتمعه بالعمق الذي يتطلع إليه، وعن إقامة جسور متينة وحوار دائم معه؛ بيد أن تفانيه في همّ الغير الذي ملأ جوانحه، وإحساسه العميق بأنه موجود من أجل الآخرين، ينسيه غربته ووحدته. فقد يحس للحظة بوحشة يَتبعُها أنين، ولكنه في أغلب الأحيان -بفضل عوالم الأمل التي شيّدها في روحه- يَفيض بشرًا وسعادة وسرورًا.

الغرباء، كأزهار شقّت بأكمامها أديمَ الأرض مبكرة قبيل الربيع. فأزهار الفجر تلك، تواجه الثلج والجليد في كل بقعة تبرز فيها، تنتصر عليهما، ثم تخوض معركة بطولية مع العواصف والأعاصير. فما أروع أزهار الثلج التي ترسل بغمزاتها إلى الشمس، وتلوّح بمناديلها البيضاء وسط الثلوج الفضية تغنّجًا ودلالاً!.. وما أعظم قدر الغرباء في الملإ الأعلى.. أولئك الذين انطلقوا نحو النور مهللين بهتافات النصر!.. فهم يظهرون قبل أن تسقط الجمرة الأولى على الثلج، وقبل أن يذوب الجليد. يواصلون حياتهم بمشقة وعنت، يبارزون المخاطر الجسام التي تتصدى لهم، فيصابون بجراح قاتلة، وينزفون، وتَخور قواهم، وتتداعى أجسامهم. يغادرون الحياة دون أن يذوقوا منها أي لذة في معظم الأحيان، يغادرونها وقد "باتوا خرابًا وترابًا"، لكن يغادرونها مغادرة الأبطال. فعندما يؤوون إلى حضن

طوبى وألف طوبى للغرباء!.. بشرى وألف بشرى لهؤلاء الذين يتنفسون أملاً، وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا، ناسين ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة المجتمع وطمأنينة الأمة، في زمن تلتهم فيه نار الفتنة والفساد الأخضر واليابس!

حراء

التربة لا يتلاشون ولا يندثرون، بل يُزهِرون ورودًا، يموتون فُرادَى، وينبعثون عشرين عشرين.

ينتشر الغرباء على أبواب المجتمع كل يوم، حاملين معهم باقة من الأفكار المباركة والرؤى السامية، يَمنحون المجتمعاتِ الميتةَ حياة، ويبعثون فيها القيم التي فقدتها من جديد، فيطرقون الأبواب مرة بعد أخرى دون كلل أو ملل، يبثّون مواجيد قلوبهم، ويفرغون إلهامات أرواحهم ثم يعودون. يتعرضون للنهر والضرب مرارًا، يقابَلون بالشتم والسبّ والأذى، يُطرَدون من الأبواب شر طردة، لكنهم لا يهِنون ولا يسأمون، ولا يَجِدون على أحد، ولا يقيمون قطيعة بينهم وبين أحد. عيونهم شاخصة نحو آفاق الغيب دومًا، يترقبون بشارة بعث مع مشرق كل شمس ومغربها. وفي مطلع كل يوم جديد يَصحُون وقد ازداد شوقهم نضرة وحماسهم اتقادًا، فينطلقون بأنفاس مبهورة، يقيمون مواقعهم في كل ممر وفي كل زاوية، يدلّون على الطريق المؤدية إلى معين الخضر عليه السلام.

من أدرك مُرادهم وشاركهم حالهم، اكتشف سر الخلود، وسعد بالوجود الأبدي. ومن نأى عنهم شقي بالموت أبد الآبدين. هؤلاء شاركوا جبريل عليه السلام مجلسه، والتقوا الخضر عليه السلام سبعين مرة. لذا تخضرّ البقاعُ التي يمرون بها، وتغدو الرمال التي تمسّ أقدامهم إكسيرًا للحياة، وتذوب جبال الكفر والإلحاد والضلال إزاء أنفاسهم الدافئة ذوبان الجليد، وتتحول الأراضي القاحلة التي تلمسها نفحاتُهم إلى حدائق إرم العجيبة.

المكابدة والمعاناة ديدنهم. كيف لا، وهم يرون المجتمع الذي تربّوا في أحشائه يتقلب من حال إلى حال أسوء، فتَغيم رؤاه، وتبهَت أفكاره، وتخمُد مشاعره، وتفسد آدابه وتقاليده، فتعتصر تلك الصورةُ قلوبَهم عصرًا، وتقصِم ظهورَهم حزنًا وكمدًا. بيد أن قلوبهم

hiramagazine.com

-في الوقت نفسه- خفّاقة بالإيمان، عامرة بالأمل، فيّاضة بتحفز روحي عظيم. فإن شابهم في لحظة شعورٌ بالوحدة والاغتراب من إهانة مجتمعهم لهم، فهم مستبشرون فرحون مطمئنون في أغلب الأحيان.

آهٍ، ما من وجهٍ أليف،
ويْكأنّ الديار خِلوٌ من البشر،
آهٍ من سُبل شديدة الالتواء، عصيّة،
آهٍ من جبال ووديان وعرة،
تعبٌ، معاناة، تأوّه، وأنين..
هذا هو الطريق..
رغم ذلك ما أعذبه من طريق!..
وما أطيب الغربة!..

قلبُ الغريب المنكسرُ ونظراتُه الغائمة، مسرح للمكابدات والأحزان. إنه بأنّاته المتواصلة يذكّرك بآدم عليه السلام، وبتأوّهاته الحارقة يُشعِرك بداود عليه السلام. فهو ينظر إلى حاله، فيجد نفسه وحيدًا في ديار الاغتراب، وقد نالت أيدي التجريح والإهانة منه، وباتت ديار الحبيب بعيدة قصيّة، فترتفع نداءاته شجية: "فلما اغتربتُ عن الغانيات الحسان، هتفتُ بحرقةٍ وا حسرتاه"[1]. ويعود يترقب يوم وصل الحبيب ولحظة لقائه والأنسِ به بشوق لا يوصف. وفي حالة الترقب تلك، لا تفتأ نسمات عليلة من ديار الرحمة تهبّ على قلبه الذي تحوّل مبخرةً متواصلةَ الاحتراق، فينتشي بوصل جديد يتبعه شوق من نوع آخر في كل حين. وإذا عثر الغريب على قلوب متفتحة يمكن أن يُفرِغ فيها مواجيد فؤاده وإلهامات روحه، فارت سواكنه، وفاضت مشاعره، وغدا شلالاً متدفقًا. في هذا السبيل الذي خاضه عشقًا، لو تناثرت ثروته وتبددت، وخمدت جذوةُ ناره، وتهدمت دارُه، لا يبدي أدنى شكوى أو تأوّه؛ بل كلما رأى شرارات النار التي قدحها في روح أمته قد انتشرت في أرجاء المعمورة، شعر وكأن هامته بلغت أطراف الجِنان، وهتف ممتنًا "وا خليلاه.. وا خليلاه"، محلّقًا عاليًا نحو آفاق الأبد.

طوبى وألف طوبى للغرباء!.. بشرى وألف بشرى لهؤلاء الذين يتنفسون أملاً، وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا، ناسين ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة المجتمع وطمأنينة الأمة، في زمن تلتهم فيه نار الفتنة والفساد الأخضر واليابس!

في مقابل هؤلاء غرباء، أو بالأصح بؤساء، ابتعدوا كل يوم خطوة عن ذاتهم وإنسانهم وثقافتهم فأضحوا أجانب منكَرين. هؤلاء يشبهون غرباءنا حزنًا ومكابدة واضطرابًا. لكنهم متهافتون، متهدّمون، يائسون، من الإيمان محرومون. إذا بحثتَ عن حياة قلبية أو روحية لهم فهيهات أن تجد شيئًا من ذلك. لا صوت لحركة، ولا بصيص نور، ولا بارقة أمل. أيام هؤلاء أشد ظلمة من لياليهم، ولياليهم مقابر حالكة السواد. هؤلاء البؤساء الذين انبتّوا عن جذورهم، وانقطعوا عن جوهرهم الذاتي، فخمدت جمرة أرواحهم، وبهت بريقها وسط ألف دوامة ودوامة من التناقضات والانحرافات.. هؤلاء يمثلون صنفًا من البشر تحت خط الإنسانية؛ بل هم أضل من ذلك وأشقى. فالهواجس والمخاوف التي تمطرها عقولهم على أرواحهم، تحرمهم حتى من الاستمتاع الشكلي لملذات الحياة. وإنّ نظرة واحدة إلى قلوبهم المظلمة، وأفكارهم المشوشة، وأعينهم الزائغة، وعقولهم التي تتصارع فيها أكوام من الأسئلة الحائرة والألغاز المعقدة، لكفيلة بأن تذكّرك بسكان جهنم. وهيهات أن تكون الحياة التي يحيونها جديرة بالعيش. ولكن، لا حيلة لهم -والموت يعني العدمَ في نظرهم- سوى اختيار هذه الحياة التي تتقاذفها الشكوك والأسئلة والألغاز.

الحياة بالنسبة لهؤلاء الحيارى عذاب في عذاب.. وإنسانيتهم مصيبة كبرى.. فالموت عندهم دوامة مرعبة وثقب أسود، والكون فوضى.. والمَخرج الوحيد لتجنب الشعور بالألم هو اللجوء إلى السُكْر المقيم.

وا حسرتاه على هذا النوع من التفكير.. وا أسفاه على هؤلاء البؤساء.. وما أشد تعاسة هذا الصنف من الغرباء. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد:٤٥ (أكتوبر ١٩٨٢). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

(1) من قصيدة للشاعر الصوفي التركي محمد لطفي ألوارلي، وهو أحد مشايخ المؤلف. (المترجم)

hiramagazine.com

د. محمد السقا عيد*

أسرار ربانية في عيون الأسماك

تختلف الرؤية في الماء عن الرؤية في الهواء، لأن الماء أقل شفافية من الهواء، وكلما زاد عمق الماء نقصت شفافيته تدريجيًّا حتى يصبح معتمًا. لذلك تستطيع عين البشر أن ترى في النور على بعد كيلومترات، أما عيون الأسماك فليس بمقدورها أن ترى أبعد من ١٥ مترًا، هذا إذا كان الماء صافيًا والأشياء المنظورة في نفس مستواها. وإذا كان الماء عكرًا فلا تزيد رؤيتها على مترين. ولكن عيون الأسماك تفوق عيون البشر في حدة الرؤية في الماء، لأنها خُلقت في غاية من الكمال لتناسب الرؤية في الوسط الذي تسكنه.

ومع هذه القدرة الفذة على الرؤية في الماء، لا تزيد عيون الأسماك في تركيبها عما في عيون سائر الفقاريات من ثدييات وزواحف وطيور. لكن الخالق ببالغ حكمته وعظيم قدرته، خلقها لتستطيع الرؤية في الماء؛ فلم يجعل بلورة عينها مثل حبة العدس كما عند الإنسان، بل جعلها على شكل كرة، ولم يجعلها خلف الحدقة كما عند الإنسان، بل جعلها تدخل إلى الحدقة وتبرز من خلالها فوق سطح الرأس، وتلك طرق يشهد علماء المرئيات بحسن ملاءمتها للرؤية الواضحة في الماء وجعل العين كلها بارزة على سطح الرأس كهيئة فص الخاتم ليتمكن السمك من سبر مجال للرؤية أوسع لأنه عديم الرقبة. ومما يميز عين السمك، أن تكيف الإبصار مع المسافات (ويسمى التبئير) يتم لديها بإبعاد أو تقريب البلورة من الشبكية، بينما يكون في سائر العيون بزيادة أو إنقاص تحدب البلورة.

فالإبقاء على الشكل الكروي للبلورة ضروري للرؤية الواضحة في الماء، سواء أكانت العين تنظر إلى شيء قريب أم بعيد. ولو قامت البلورة بتغيير تحدبها كما يتم ذلك في عيون سائر الحيوانات، لفقدت شكلها الكروي ولتشوشت الرؤية في الماء. ولذا فإن الخالق جعل بلورة عين السمك مشدودة بعضلات تتحكم في تحريكها، بحيث يكون التبئير لديها بزيادة أو إنقاص المسافة بين البلورة والشبكية من غير أن يتبدل شكل

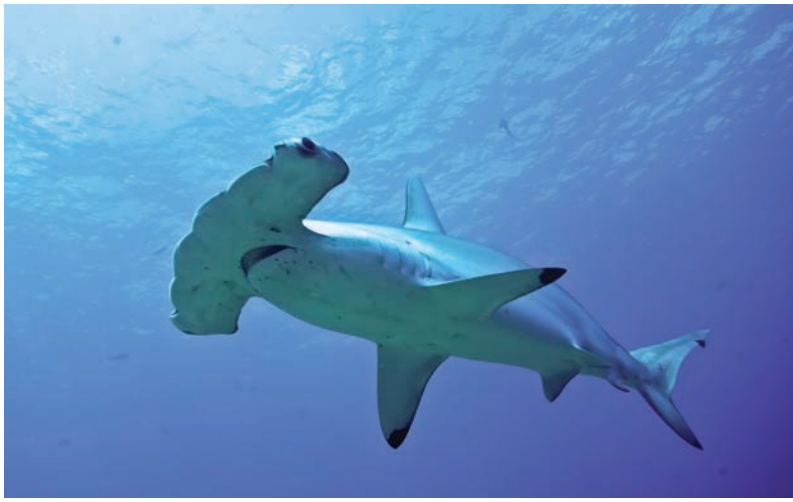

البلورة الكروي. ومما يسترعي النظر أن عيون الأسماك خالية من الأجفان، وما ذلك إلا من حسن التدبير، لأن الخالق لما أسكنها الماء، أغناها عن عملية ترطيب العين، فتظل مفتوحة العين حتى وهي نائمة.

هناك أسماك ترى في اتجاهين في وقت واحد، وهناك الكثير من الأسماك في البحار المظلمة، مزودة أعينها بمصابيح كالمرآة تضيء لها ما تريد، وذلك لتوهج السطح الداخلي المبطن لتلك الأعين بطبقة لامعة تشبه المرآة وتسمى بـ"الطراز المتألق". وهذه الطبقة لديها القدرة على عكس الضوء الذي يسقط عليها، بل ولديها القدرة الفائقة أيضًا على تركيز وتجميع ضوء النجوم الخافت أو القمر أو حتى النيران البعيدة.

تلجأ أسماك الأعماق إلى كشافات ضوئية تضعها فوق رأسها. ووسيلتها في هذا السبيل أن تحمل بعض الطفيليات المضيئة من نباتات أو حيوانات، كما أن بعضها مزود بقوة كهربائية غريبة لم يكشف عن سرها بعد.

السمكة ذات العيون الأربع

إنها سمكة توجد في بعض المناطق في أمريكا الوسطى والشمالية والجنوبية. وهي تتغذى على الحشرات غالبًا، لذلك تقضي معظم وقتها على سطح الماء لأجل صيد الحشرات. إنها لا تملك أربعة عيون كما يوحي اسمها، وإنما عينين اثنتين فقط، ولكن تنقسم كل عين منهما لقسمين اثنين، ولكل نصف منهما مقلة خاصة به، وهذا يسمح لهذه السمكة العجيبة بالنظر إلى أعلى بحثًا عن فريسة، وفي نفس الوقت النظر إلى أسفل -تحت الماء- تحسبًا من أعدائها من الأسماك الأخرى.

وقد وهب الله تعالى لكل قسم من عيني هذه السمكة ما يناسبه من تجهيزات؛ حيث يتحمل النصف العلوي من العينين الرؤيةَ في الهواء، في حين يتحمل النصف السفلي الرؤيةَ في الماء. وعلى الرغم من أن نصفي مقلة العين الواحدة يستخدمان العدسة نفسها، إلا أن هناك اختلافًا دقيقًا في سماكة ومنحنى العدسة بين الأعلى والأسفل.

عيون الحيتان

نلاحظ أن وضع العين في جسم الحيوان يوسع نطاق الرؤية أو يحده. فأنت ترى الأمام والجانبين، ولكن موقع عين الحوت يسمح له برؤية ما يجري خلفه أيضًا بعينٍ، كما يرى ما هو أمامه بالعين الأخرى، ولكن ما تراه عين لا تراه الأخرى، فكل منهما ثابتة في موضعها واتجاهها. فإذا أراد الحوت مهاجمة فريسة له اتجه إليها من الأمام مباشرة، وإذا أراد استطلاع ما حوله وقف في الماء ودار بكل جسمه.

عيون الأنبلابس

ولعل أشد العيون غرابة هي عيون سمك "الأنبلابس" الذي يعيش في أنهار أمريكا الوسطى والجنوبية. فإن هذا السمك يرى على السواء ما يجري في الماء والهواء في نفس الوقت، بعينين تنقسم كل واحدة منهما إلى جزئين؛ جزء سفلي فيه عدسة سميكة تجعل السمك يرى في الماء كسائر الحيتان، وجزء علوي رقيق يجعله يرى في الهواء لاختلاف الكثافة الضوئية للماء عن كثافة الهواء. وهذا من بديع الصنع؛ لأن الضوء ينكسر مساره عند انتقاله من الماء إلى الهواء لاختلاف الكثافة الضوئية للماء عن كثافة الهواء الضوئية، فيتطلب الإبصار في الماء عدسةً ذات بعد بؤري طويل، بينما يتطلب الإبصار في الهواء عدسةً ذات بعد بؤري قصير، ولذلك فإنه لما يطفو هذا السمك على سطح الماء، يستعمل الحدقة العليا لرصد ما يجري فوق الماء لاقتناص ما يقتات به من الحشرات ولاجتناب آكلات الأسماك من الطيور، ويستعمل الحدقة السفلى لمراقبة أعدائه من الأسماك. وبهذه العطية الغريبة، يضاعف سمك "الأنبلابس" من حظه في العثور على قوته، وفي الهروب من أعدائه،

hiramagazine.com

وليس بإمكان أي عين بشرية، أو أي عين حيوان آخر، أن تفعل مثل ذلك.

عيون سمك النبال

وبوسع سمك "النبال" أن يصيب هدفه على بعدٍ يقارب المترين، ولا أحد يدري كيف اهتدى هذا السمك إلى معرفة قانون انكسار الضوء، ولا كيف استطاع أن يصوّب رميته تصويبًا يعجز الإنسان عنه. إنما هي قدرة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

عيون سمك القاع

من حكمة الخالق أن أسماك القاع -كسمك موسى والشفنين- لها عيون يختلف موقعها من الرأس عن عيون الأسماك الأخرى، فإنه سبحانه لما جعلها لا تجيد السباحة، خلقها على صورة فريدة، فجعل لها جسمًا مفلطحًا بحيث تستطيع ملازمة قعر البحر والانبطاح فيه، وجعل عينيها في ظهرها حفظًا لبصرها، وجعلهما بارزتين لتستطيع الرؤية وهي مختبئة في الرمل.

ومن الغريب أن هذه الأسماك المسطحة الجسم، تبدو كأترابها عند خروجها من البيضة. فلها جانبان متناظران لا يختلف أحدهما عن الآخر، وعين في كل جانب، لكن سرعان ما يتغير شكلها فيتفلطح جسمها تدريجيًا، وتقترب العين اليسرى من اليمنى في بعض الأنواع، واليمنى من اليسرى في البعض الآخر حتى تصبح العينان في الجانب الأعلى من الرأس.

ويتجلى حسن الصنعة في عيون سمك القرش ذات المطرقة، فهذا السمك الغريب الشكل له رأس عريض ممتد من الجانبين وكأنه مطرقة، وتوجد كل عين على جانب من هذه المطرقة، فلولا هذا الموقع لم يتمكن من رؤية ما أمامه أو ما وراءه.

الحبّار العملاق

الحبّار العملاق هو أضخم لا فقاري بالمملكة الحيوانية، ولديه أيضًا ثاني أكبر عينين بالمملكة الحيوانية، يمكن أن يصل قطر كل عين إلى ٣٠ سم، وهذه العيون الضخمة تمكّن الحيوان من الصيد تحت عمق ٢٠٠٠ متر حيث يقل الضوء بشكل كبير. والحبار الضخم ينمو ليصل إلى

أكثر من ١٥ متر، وكلما كبر حجمه كبر حجم عينيه. كما أن لديه ما يشبه التلسكوب، مما يعطيه قدرة هائلة على تحديد المسافة بينه وبين كائن آخر في حلكة الظلام.

عيون السرطان "أبو جلمبو"

ومن عجيب ما يلاحظ في الأحياء البحرية بالنسبة للعيون، عين السرطان "أبو جلمبو"؛ فقد رفعها الخالق فوق قرن دقيق في مقدمة رأسه. والحكمة في ذلك أنه حيوان رخو أعزل ليس له صدفة تحميه، فأُعين على مراقبة كل ما يدب حوله بعينين كشافتين، فإذا أحس بالخطر توارى بنفسه في الرمل ثم نصب عينيه فوق الرمل مثل منظار الغواصة لاستكشاف ما حوله، وله من حدة الرؤية ما يمكّنه من رؤية جسم طوله ١,٨٠ مترًا من مسافة ١٨ مترًا.

السرعوف الروبيان

وهو من ذوي أغرب وأعجب العيون، ويعد السرعوف الروبيان أحد القشريات الذي يملك أسلحة قوية وعدوانية غير طبيعية.

ويملك هذا المخلوق عيونًا مركبة، مكونة من الوحدات البصرية التي تدعى أوميتيديا، ولكنها أقل مما في السرعوف العادي، حيث إن عينه مكونة من ١٠,٠٠٠ أوميتيديا. ويرى السرعوف الروبيان الألوان بشكل أفضل بكثير من البشر، حيث إنه يملك ١٢ مستقبِلاً للألوان، بينما إناث البشر تملك ٣ والذكور يملكون ٢ فقط. ذلك فضلاً عن رؤية عينيه للأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء معًا، بل وللضوء المستقطب أيضًا.

hiramagazine.com

وبالتالي فإن رؤية السرعوف الروبيان، أفضل وأكثر تعقيدًا من باقي المخلوقات. وما زال العلماء يكتشفون الغريب والعجيب في عينيه مع تطور الأبحاث.

سمكة السبوك

سمكة السبوك سمكة مياه عميقة، ويبدو منظرها كالأشباح. تملك هذه السمكة هياكل عظمية للعيون هي الأغرب بين المخلوقات، حيث إن كل عين لديها طرف يسمى رتجًا، والرتج يتكون من مرآة من عدة طبقات من جوانين الكريستال، وهذه المرآة ممتازة في جمع الضوء وعكسه على شبكية العين، وهذا يجعل السمكة ترى ما في الأعلى والأسفل بنفس الوقت. وكذلك مفيدة في الظلمة، حيث تجمع النور وتسلطه على الشبكية لتضيء عيناها كالسِنوْريات. وكل ذلك يمكّنها من الرؤية في أعماق البحر حوالي ١٠٠٠-٢٠٠٠ متر.

تعيش سمكة السبوك في جميع بحار العالم، ولكنها نادرة الرؤية بسبب العمق الذي تعيش فيه. وتتغذى على القشريات الصغيرة والعوالق، كما أن رصدها صعب للغاية لعمق وجودها في البحار.

ومن الغريب أن هناك سمكًا فريدًا مي نوعه يعيش في المستنقعات الاستوائية المالحة في غرب إفريقيا وفي أقصى الشرق، ويقضي نصف حياته في الماء، والنصف

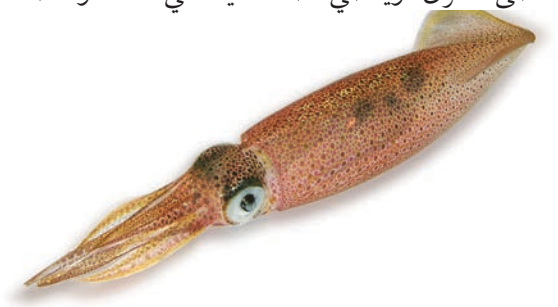

الآخر على اليابسة؛ له عينان جاحظتان جحوظًا كبيرًا، وهما خاليتان من الأجفان، لكنهما رطبتان على الدوام وإن لم يكن السمك في الماء، فقد جعل الله فيه خاصية عجيبة، إذ تغور عيناه داخل رأسه في تجاويف ندية تحفظهما من الجفاف.

ومما يبعث على العجَب أن نوعًا آخر من السمك يتغذى على الحشرات الجوية، له قدرة مدهشة على تسديد نظره إلى ما يراه في الهواء عبر الماء. ذلك أن الضوء ينحرف عند انتقاله من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف مختلف عنه؛ فعندما ينظر المرء إلى ملعقة في كأس ماء، يخيل إليه أنها انكسرت، وإذا نظر إلى شيء ما تحت الماء بدا له مرتفعًا عن موضعه الحقيقي. لذلك إذا أراد الإنسان أن يصيب هدفًا تحت الماء فإن عليه القيام بحساب معقد لتصويب نظره. وسمك "النبال" تعترضه نفس المشكلة لكن في اتجاه مضاد؛ فحين يرى حشرة على غصن متدل، يقترب من سطح الماء ويرمي الحشرة بقذفة مائية دقيقة قلما تخطئ.

وما دمنا نتجول في عالم البحار، وجب علينا أن نتعرف على أكبر الأعين على الإطلاق. وهي أعين رخويات المياه العميقة التي يصل قطرها إلى ٤٠ سم. وهذه واحدة من عجائب الله تعالى في كائنات المياه العميقة. فكثير منها تمتلك أعينًا تلسكوبية الشكل وحدقة كبيرة جدًّا. وجميع هذه التحورات موجهة لتجميع أكبر كمية من الأشعة الضوئية داخل العين، وتركيزها على الخلايا المستقبلة للضوء التي تتميز بالحساسية الشديدة له.

وهكذا فقد اقتضت حكمة الخلاق العليم إعطاء الأحياء -على اختلاف أصنافها وأجناسها- كل ما تحتاج إليه من أعضاء، وما يناسبها ويلائم بيئتها من المؤهلات اللازمة للحياة. فأنشأ لها ما لا يحصى من الأعضاء، وأبدع من العضو الواحد ضروبًا مختلفة، تبعًا لظروف حياة كل موجود. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiramagazine.com

د. خالد راتب*

الاحتكاك الحضاري

تلاقح الحضارات أمر واقع لا مناص منه، ولا سيما في عصر السماوات المفتوحة. ومن ينكر هذا التلاقح هو إنسان لا يعرف طبيعة العلاقات البشرية، فهو إنسان يريد أن يعيش في عالم غير العالم الذي نعيش فيه. وقد أثبت الدارسون والباحثون في ميادين التاريخ والاجتماع، أن الحضارات تتفاعل وتتعاقب وتتبادل، أي أن هناك احتكاكًا فعليًا بين الحضارات. وهذا الاحتكاك الحضاري ينطلق من قاعدة التعارف. فالأمم والشعوب لا وجود لها من غير هذا التعارف الذي بدأ من تعارف أبينا آدم عليه السلام على أمّنا حواء، ثم انطلقت السلالة البشرية بعد ذلك في صورة الأمم والشعوب على أساس هذه القاعدة. فعن طريق التعارف تستطيع الحضارات أن تتفاهم.

يقول زكي الميلاد: "فالتعارف هو الذي يؤسس لأشكال الحوار ومستوياته ودرجاته، وإلى أشكال ومستويات ودرجات أخرى من العلاقات والتواصلات أيضًا، كالتعاون والتحالف والتبادل والإنماء والاندماج والتكامل، إلى غير ذلك من صور وأشكال وأنماط العلاقات، وبقدر ما يتطور التعارف تتطور تلك الصور والأنماط من العلاقات والتواصلات. وهذا يعني أن التعارف يسبق الحوار ويؤسس له أرضياته ومناخاته، ويشكل له بواعثه وحوافزه، ويطور له صوره وأنماطه، ويرتقي بدرجاته ومستوياته. ولهذا فإن التعارف هو القاعدة وليس الحوار"[1].

ونظرية أو قاعدة تعارف الحضارات مستنبطة من القرآن الكريم. وقد حدد القرآن الكريم مبدأ التعارف والتلاقح الحضاري، حيث جعل عامل المراقبة والتقوى هو أساس نجاح تفاعل الحضارات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

والمناخ الديني مناخ يعترف بالتعددية الحضارية ويقبلها على أساس من قاعدة الاختلاف الطبيعي بين البشر. وقد اعترف الإسلام باختلاف البشر وأنه يمثل ظاهرة طبيعية، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩). بل إن الاختلاف بين البشر سبب مهم من أسباب اجتماعهم وتعارفهم وتبادلهم للمعارف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

من إيجابيات الاحتكاك الحضاري

الاحتكاك الحضاري ليس كله خير، وليس كله شر، ولكن فيه الإيجابي والسلبي. ومن أهم إيجابيته:

خلق روح المنافسة بين الحضارات: فكل دولة تسعى إلى السبق الحضاري، وهذا السبق الحضاري لا يتأتى إلا بالعلم والعمل والتنمية الفكرية والثقافية والدينية.

وهذا يدفع الأمم والشعوب إلى بذل كل ما يملكون لتحقيق تقدم حضاري شامل ومتكامل، ويجعل هذا، الدول في القمة الهرمية التقدمية. وفي هذه الحالة يجب على كل الحضارات -ومنها الحضارة الإسلامية- أن تقتبس كل الإيجابيات من الحضارات الأخرى ما دام هذا الاقتباس لا يؤثر على دينها. إذ النبي ﷺ أخذ ببعض الوسائل الحديثة التي لم يعرفها العرب كحفر الخندق.

والاحتكاك الحضاري ما دام نافعًا ولا يخالف ثوابت الدين، فلا مانع منه بل قد يكون واجبًا، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذ بها. وأصل هذا التبادل الحضاري النافع في الشريعة الإسلامية؛ وقد أذن ﷺ بالتفاعل الحضاري والتواصل الثقافي مع أهل الكتاب، غير أنه ﷺ رفض ما يعارض القرآن، وقبل ما يوافقه، وحذر مما لا يعلم صدقه من كذبه. عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال: قال ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" (رواه البخاري)، وورد في بعض ألفاظه: "ولكن لا تصدقوهم ولا تكذبوهم".

عمارة الأرض وانتفاع البشرية بهذا التدافع: فمن غير هذا الاحتكاك تفسد الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١)، وما هذا التقدم التقني الحديث، إلا حصيلة هذا التدافع. فالتدافع الحضاري يدفع عجلة الإنتاج الثقافي والفكري والاقتصادي والسياسي، كما أنه يحقق اكتفاء ماديًا ومعنويًا في كل جوانب الحياة.

إعادة الأمة الإسلامية إلى خيريتها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾(آل عمران:١١٠)، وذلك عندما نرى الغرب قد أخذ بالقواعد والمبادىء الإسلامية، وتعامل معها بجدية فنهض وحقق تقدمًا حضاريًا في الوقت الذي تأخر فيه أصحاب المنهج السليم والدين الحق، أصحاب رسالة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١). فرسالة الإسلام رسالة العلم والقراءة في كتاب الله المنظور والمسطور. فالقرآن يوجه أنظارنا -بصورة ملحوظة- إلى تدبر آيات الله في الكون؛ في السموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والحيوان... وكل ما يقع عليه الحس من كائنات، لكي نحقق -بالعلم- استغلال الطاقات الكونية المسخرة لنا أصلاً من عند الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣). فهذه الطاقات الكونية مسخرة من عند الله للإنسان. نعم، ولكنها تحتاج لأن يتعرف الإنسان عليها، كي يستغلها فيحقق السعادة للعالمين.

ومن هذه التوجيهات وغيرها في القرآن اتجه المسلمون إلى العلم، وإلى العلم التجريبي خاصة، فأنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي تقوم عليه النهضة العلمية الحاضرة في أوروبا بعد أن تعلمت ما تعلمت في مدارس المسلمين. ومن قبل ذلك كان العلم على يد اليونان علمًا نظريًا بحتًا لا يؤدي إلى تقدم كبير. وقد اعترف العالم بدور المسلمين في هذا الشأن؛ يقول العالم الأوربي المشهور "هاملتون جب" في كتابه "الاتجاهات الحديثة في الإسلام": "أعتقد من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون، قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة، وأنه عن طريق هذه الملاحظات، وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى"[٢].

من سلبيات الاحتكاك الحضاري

إن إمكانية الاحتكاك بين الحضارات أمر جائز، بشرط ألا يصل الأمر إلى الامتزاج الكلي الذي تنمحي معه الهوية؛ لأن الاحتكاك بين الحضارات لا بد أن يكون قائمًا على النِّدية وليس التبعية، ولا فرض الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية، والسيطرة العسكرية.

كما ينبغي أن يكون هذا الاحتكاك الحضاري نسبيًا وبمعايير ورؤية شرعية، لا تتصادم هذه الرؤية مع أصول وثوابت الدين، ولا يعني الاحتكاك والتعارف بين الحضارات فقدان القيم والأخلاق، كما يجب أن تتوخى الأمم المتلاقحة حضاريًا عدم الانخلاط دون وعي مع ما يخالف المشتركات الإنسانية والعقائدية والأخلاقية، والحذر من زيف الحضارات الغربية المتلونة بلون المادية البحتة. فالحضارات الغربية في أغلب حالاتها، تحمل فلسفات وقيمًا ومعايير ومفاهيم

hiramagazine.com

مغايرة تمامًا للمعايير والقيم والمفاهيم الإسلامية، وذلك لأن الحضارة الإسلامية لها خصائص وميزات لا توجد في الحضارات الأخرى. فالحضارة الإسلامية حضارة منها ما هو ثابت لا يقبل التغيير مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة؛ فالأخلاقيات الإسلامية -مثلاً- لا يمكن أن يطرأ عليها أي تغيير، فالأمانة هي الأمانة، والصدق هو الصدق، والعفة والكرامة الإنسانية... وكل الأخلاقيات هكذا في الإسلام، لا يمكن تغييرها بقوانين أو برأي الأكثرية، فهذا مستحيل، أما في بعض الحضارات غير الإسلامية، يمكن تغيير الثابت حسب ما يراه الناس؛ فالعفة عندهم تخضع للمعايير البشرية، فمن الممكن إنشاء علاقة غير أخلاقية كاتخاذ الأخدان، إذا وافق الأكثرية على ذلك بل يصبح هذا الأمر عندهم حرية وديموقراطية. فمثل هذه الحضارات المزيفة لا يمكن تزاوجها مع الحضارات الإسلامية، لأن لكل منهما طريقًا مختلفًا وسياقًا خاصًّا.

التقديس الأعمى للغرب ولكل ما يأتينا منه: إن تعظيم الغرب في كل شيء -فيما ينفع وفيما يضر- يعد جريمة؛ وذلك لأن الغرب يقصد ويهدف في دعوته للتبادل الحضاري تحطيم النموذج الإسلامي في التاريخ والواقع، وذلك برفع قيمة الغرب، حتى لا يبقى أمامك خيار إلا الاتباع الذليل، والتقليد الأعمى. وقد تم ذلك في أغلبه؛ حيث عظم كثير من الناس سلاح الغرب، ومدنية الغرب، وأخلاق الغرب، وعقل الغرب، وأدب الغرب، وفن الغرب، بل وعظموا لغة الغرب. حتى بعض المسلمين افتتن بالحضارة الغربية وبلغتها، وأصبح الرجل يحرص على تعليم الإنجليزية لابنه أكثر من حرصه على العربية، بل ومن تعليم القرآن. وحتى تدرج الأمر بنا إلى أن ابتلينا بما أطلقوا عليه مدارس إسلامية للغات، بحجة أننا يجب أن نعلّم أبناءنا لغة الغرب لندعوهم إلى الإسلام. أتتعلمها على حساب لغتك؟ وبحجة أن الأعمال المرموقة لا بد لها من لغة أجنبية جيدة، هل على حساب لغة القرآن؟ وحتى لو أتيت لابنك بمعلم للعربية في البيت، سيظل الطفل معظمًا للغته الأولى في مدرسته. أنا لست ضد تعليم الأطفال لغة أجنبية "ثانية"، ولكن بشرط أن تكون فعلاً

إن إمكانية الاحتكاك بين الحضارات أمر جائز، بشرط ألا يصل الأمر إلى الامتزاج الكلي الذي تنمحي معه الهوية؛ لأن الاحتكاك بين الحضارات لا بد أن يكون قائماً على النِّدية وليس التبعية.

لغة "ثانية"، لا أن ندرس للأطفال العلوم والرياضيات والجغرافيا والتاريخ باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، أو أي لغة أخرى إلا العربية[٣].

ولم يقتصر الأمر على تعظيم الغرب وتقديسه، بل وصل الأمر إلى قبول وتقديس كل ما يأتي من الغرب بحلوه ومره وخيره وشره، ما يحب ويكره.

الانبهار ببريق العلمانية والظن أنها المنقذ للإنسانية كلها: ولا حرية ولا حقوق ولا تعايش سلميًّا، إلا في ظل فصل الدين عن الحياة، وأن العلمانية ليست ضد الدين، وهي تهتم بأمور الدولة والسياسة، ولا تتدخل بالأديان.

إن قبول العلمانية بهذا المفهوم يهدد كيان الإنسان بما تحدثه هذه العلمانية من تناحر في أمور الاعتقاد، والاقتصاد والسياسة، والاجتماع البشري. فالعلمانية تعني أن الدولة بلا دين، وأقول الإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة، ولا يقبل من المسلم أن يؤمن ويطبق الإسلام في الأمور العقائدية والاجتماعية، ويرفضه ويكفر به في الأمور السياسية والتشريعية. وبناء على ذلك نقول إن الاحتكاك الحضاري هنا ممنوع، لأن المسلم لا يمكن أن يكون علمانيًّا، لأن المسلم يوقن أن إقامة الشريعة الإسلامية تحقق التقدم والرقي والنهضة الحضارية للأمم كلها بما تحمله من عدل ورحمة، وأن العلمانيين المتطرفين غير قادرين على تحقيق رقي حضاري أبدًا والتاريخ والواقع يشهدان بذلك. ■

(*) دكتوراه في الشريعة الإسلامية / مصر.

الهوامش

(١) المفصل في أحكام الهجرة، لزكي الميلاد، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود، ٤٧/٥.

(٢) نقلاً من كتاب "منهج التربية الإسلامية" للأستاذ محمد قطب.

(٣) أمة لن تموت ٨/١، لراغب السرجاني بتصرف كبير وزيادات.

د. عبد المجيد بوشبكة*

المال بين أهل السلطان وأهل القرآن

وأنا أتصفح واحدًا من الكتب القيمة التي تذكرنا ببعض سلوك ومنجزات الجيل الفريد زمن النبوة الزاهر، أثارني موضوع علاقة ذلك الجيل بالدنيا والكدح في جمع الأموال. ولاحظت أن الأمر تجاوز المعلوم لدى كثير من المسلمين في علاقة المسلم بالدنيا وجمع الأموال وكذا من عرف بذلك من الصحابة الكرام. حينها تسلل إلى حدسي الكثير من أقوال وتوجيهات الأستاذ المجدد محمد فتح الله كولن وفي غير ما موضع، حيث كسر المألوف عند عدد من مشاهير العلم الذين ما فتئوا ينفرون من حطام الدنيا وجمع أموالها، ويدعون إلى الزهد فيها والإدبار عنها، حتى بات بعض المسلمين يتفاخرون بالفقر والفاقة وهم عيال على غيرهم في قوتهم وما تستقيم به حياتهم؛ بل إن الكثير من خصوم الدين اليوم، اتخذوا من فقر الناس وسيلة لاستعبادهم وتركيعهم والتطاول على كرامتهم.

وقد ذكر عدد من العلماء الأثبات علاقة الصحابة الكرام ﷺ بالدنيا، وأماطوا اللثام عن الخيط الأبيض من الأسود

من حطامها. ومن بين هؤلاء، الشيخ الفذ المحدث عبد الحي الكتاني في كتابه النادر، "نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية". فقد أثر عن ذلك الجيل الفريد من الصحب الكرام ﷺ قصص وروايات ما أحوجنا إلى إعادة قراءتها وفهمها، من أجل فقه للحياة جديد يميط اللثام عن ما ران من أفكار بقلوب كثير من الناس قبل عقولهم.

فكما كان النبي ﷺ يعلم الإيمان كان يعلّم العلم. وتوجيهاته عليه الصلاة والسلام في الباب غزيرة، ناهيكم عن التوجيهات الربانية العطرة. ولأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر -كما في المأثور عن الإمام علي ﷺ- فقد كسر الصحابة الكرام تلك القاعدة فتعلموا وهم كبار في السن، كما أسلموا وآمنوا وهم شيوخ، وتعلموا الإسلام وصاروا في ذلك أساتذة العالم.

لقد روي عن الفاروق عمر ﷺ كما في باب العلم عند البخاري: "تعلّموا قبل أن تسودوا". ونقل عن القاضي عياض: أي قبل أن تتزوجوا لئلا تشغلكم أزواجكم وبيوتكم عن ذلك، وفي هذا السياق روى قول عمر بن الخطاب ﷺ، أنه كان يتناوب هو وجار له من الأنصار النزول على رسول الله ﷺ، ينزل هو يومًا وينزل جاره يومًا، يقول: "فإذا نزلت يومًا جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي. وإذا نزل فعل مثل ذلك". قال العلماء: ومفاد ذلك أن طالب العلم لا ينبغي له أن يغفل على معاشه حتى يتمكن من الاستعانة على طلب العلم. وبذلك تصان كرامة الإنسان في الحياة. فلا السعي من أجل المعاش يشغل الإنسان، ولا طلب العلم يترك. هكذا تربى الجيل الفريد الذي عمر الدنيا وساد فيها، واهتم بالعلم النافع وحصد الحسنيين.

وقد روي عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان ﷺ أنه كان يتخذ وقت السمر لسماع كتب التاريخ وأخبار الأمم. ليس هذا فحسب، بل إن عددًا من أهل العلم خصصوا أبوابًا جمعوا فيها ما يدل على ممارسة الصحابة الكرام ﷺ للحكمة والتنجيم والقافة (الرواية وتتبع الآثار) والموسيقى والطب والإدارة والحرب والسياسة والترجمة والإملاء والصناعة... ناهيكم عن

إن الإنفاق المثالي لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان خبر الحياة ودروبها، وحقق من النجاح فيها ما وافق سننها فأعطته وبسخاء. لكنه لما فقه الإسلام وتذوق حلاوة الإيمان، علم بأن المال مال الله وأنه عبد مستخلف فيه، فرد الأمر إلى صاحبه، وأنفق وبسخاء وعن طيب خاطر في سبيل الله.

التجارة. لذلك اهتم الصحابة الكرام بجمع المال في الدنيا، لكن ذلك كان وفق فلسفة الإسلام وعظمة شريعته، لا كما تسلل إلى أهل بعض الناس من الكبراء والسلاطين، الذين اتخذوه منفذًا للطغيان والتجبر.

ومن الصحابة الذين توسعوا في الدنيا وجمعوا الأموال، عدد هائل -منهم على سبيل المثال- ما نقرأه دائمًا في السيرة النبوية العطرة وخاصة في ظروف الحرب وضيقها، ومواجهة كيد الخصوم ودسائس الأعداء. ولعل أبرز مثال على ذلك، ما أنفقه سيدنا عثمان ﷺ على جيش المسلمين في ما عرف بجيش العسرة في غزوة تبوك من أموال طائلة جهز بها جيش المسلمين في ظروف صعبة، وقد قيل إنه أنفق على ذلك الجيش حمولة ألف بعير وسبعين فرسًا، الشيء الذي جعل النبي ﷺ يحفظها له بدعوته: "اللهم ارض عن عثمان، فإني راض عنه". وعن الترمذي أن النبي ﷺ بعد عطاء عثمان هذا، نزل عليه السلام من أعلى المنبر وهو يقول: "ما على عثمان ما عمل بعد ذلك". لقد فاز سيدنا عثمان ﷺ بذلك الرضى النبوي الغالي في الدنيا قبل الآخرة.

هذا العطاء وهذا الإنفاق المثالي لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان خبر الحياة ودروبها وحقق من النجاح فيها ما وافق سننها فأعطته وبسخاء. لكنه لما فقه الإسلام وتذوق حلاوة الإيمان، علم بأن المال مال الله وأنه عبد مستخلف فيه، فرد الأمر إلى صاحبه وأنفق ذلك المال وبسخاء وعن طيب خاطر في سبيل الله.

وقد تحدث الناس عن غنى سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ حتى قيل عن حنكته: لو أنه رفع حجرًا لرجا أن يصيب تحته ذهبًا. وبعدما توفي سيدنا عبد الرحمن ﷺ، حفر الذهب من تركته بالفؤوس. وأوصى ﷺ بخمسين

hiramagazine.com

ألف دينار، وأعتق ثلاثين عبدًا، وتصدق بأكثر من أربعين ألف دينار وبخمسمائة فرس وبخمسمائة راحلة. وعن الحافظ الترمذي أنه أوصى لأمهات المؤمنين ﷺ بحديقة بيعت بأربعمائة ألف. وروي عن عروة بن الزبير ﷺ أن ابن عوف ﷺ أوصى لمن بقي بعده من أهل بدر بأربعمائة دينار لكل رجل، وكانوا مائة فأخذوها.

وفي طبقات ابن سعد: فجميع مال الزبير بن العوام ﷺ أربعون ألف ألف ومائتا فرس. وعن هشام بن عروة ﷺ عن أبيه قال: كان قيمة ما ترك الزبير إحدى وخمسين أو اثنين وخمسين ألف ألف. وروي عن ابن مسعود ﷺ أنه خلف تسعين ألف دينار سوى الرقيق والماشية. وجاء في مروج الذهب أن غلة طلحة في العراق ألف دينار كل يوم، وفي غيرها أكثر من ذلك.

وعن ابن عساكر أنه ممن كان من أغنياء الصحابة الكرام عمرو بن العاص ﷺ، فقد كان يلقح كروم الوهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة، كل خشبة بدرهم. وكانت له دور كثيرة بمصر ودور بدمشق وغيرها... حتى قال بعضهم إن ما يذكر من ثروة ابن العاص لا يقبله عقل.

ومن أغنياء الصحابة سيدنا أنس بن مالك ﷺ، فقد أخرج صاحب الطبقات وغيره، أن سيدنا أنس بن مالك ﷺ كان من أصحاب الأموال. وفي غناهم يقول الشيخ محمد بن أحمد الحضيكي (١٧٧٥م): ولا ينافي زهدهم في الدنيا كونهم أغنياء كما تقدم، وحصولها بأيدي بعضهم بدعائه ﷺ لأنس وابن عوف، وثنائه ﷺ على المال بقوله: "نعم المال الصالح للمرء الصالح" لأنهم خُزان الله.

ومما قيل في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾(الشورى:٢٧)؛ الضمير هنا يعود على الرزق لا على الاسم الشريف، فقد بسط سبحانه لعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ﷺ، ولم يكن منهم أحد باغ.

نعم لقد حاز صحابة رسول الله ﷺ الدنيا من أطرافها، إلا أنهم -وكما روي- جعلوها مطية للآخرة، ولم يغتروا بأموالهم ولا بسلطانهم فينحرفوا عن المبادئ التي من أجلها تحركوا وعلى رأسها؛ إحقاق الحق وإزهاق الباطل على غرار المنهج النبوي الذي علمهم إياه نبي الهدى ﷺ. فانطلقوا من مكة إلى كثير من بقاع العالم؛ همهم الأول الجهاد في سبيل الله بالمال، كما جاهد غيرهم بالنفس. وبذلك الجهاد المبارك انتشر هذا الدين العظيم حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار.

واليوم أتى على الناس حين من الدهر أصبح جمع المال فيه شغلهم الشاغل، والتنافس فيه مباح لكل من دب على الأرض إلا على المسلمين. فمن نجا منهم من عقم الفتاوى السائبة أو الفهوم القاصرة، أصابه شراك العولمة الجامح وقيمها الحمقاء التي لا تبقي ولا تذر. فكل من لم ينخرط في سلك أهلها فهو عدو مفترض ومتهم حتى تثبت براءته.

بين هذا وذلك، بدأ أنين المسلمين يسمع في كثير من بقاع العالم اليوم رغم تواجد جل الثروات في بلدانهم وتعدد الدعوات لأخذ أمورهم بيدهم، إلا أن المكائد من الأولياء قبل الخصوم باتت مثل قطع الليل المظلم عليهم، لا أمل لهم إلا رحمة الله وعنايته.

في خضم هذا الأنين بدت شرارات الأمل تلوح حينًا وتغيب آخر بفضل جهود العقلاء والمخلصين؛ من العلماء والوجهاء ورجال المال والأعمال في هذا العالم المتوحش. أما جهود العلماء فقد صادفتُ بعضها وأنا أقرأ في هذا الصدد ما كتبه بعضهم، ومن ذلك قول الأستاذ الكبير محمد فتح الله كولن وهو يسلط أضواءه على سورة الكهف حين توقف عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾(الكهف:١٩)، قال: "والشيء الثاني الذي يجلب النظر في هذه الآية الكريمة هو المال والنقود، فمهما كانت النتيجة فإن النقود -أي مال الدنيا وزينتها- هي التي كشفت عنهم وعن مكانهم. لأن أهل المدينة عرفوا "يمليحا" -إن كان هو المشتري- من نقوده".

من أول وهلة تبدو واقعية الرجل في قراءته لآي الذكر الحكيم جلية. وشرط الواقعية لم يعد ضرورة فقط في زمننا الممسوخ، كما يفهم بعض الناس وينكرونه على من يقول به من العلماء والدعاة، بل الواقعية شرط

hiramagazine.com

حاضر منذ زمن النزول للقرآن الكريم. ألم يصنف علماء الأمة هذا القرآن إلى مكي ومدني؟ هل يمكن لمطلع على هذا الدين أن ينكر أن القرآن المكي عالج في مجمله قضايا أساسية تهم الواقع العقدي الذي بات شغل الناس الشاغل؟ ألا تعد القضايا التي تطرّق إليها القرآن المدني هي همّ المسلمين حينها بالمدينة المنورة؟ بل إن قضايا أسباب النزول تعد صلب واقع الناس وهمومهم التي أجاب عنها القرآن بعد ما تتبع أطرافها وأصحابها.

نعم، هكذا يفهم الأستاذ فتح الله القرآن الكريم على أنه نزل صالحًا لكل زمان ومكان، ومن ثمة لا بد من فهمه على ضوء الواقع الذي يعيشه الناس، وإلا فقد يصبح غير صالح لنا كما يريد بعضهم أن يبقوه بعيدًا عن حياتنا إلى الأبد. ولم يكتف الأستاذ كولن بذلك بل أردف قائلاً: "إذن فرجل الفكر والدعوة إن كان لا يرغب في التعرض للقبض عليه من قبل الأعداء أو من قبل الأصدقاء أو من قبل مجتمعه، فيجب عليه ألا يبتعد عن حب الربح والكسب فقط، بل عن أي ضعف دنيوي في هذا المجال". هكذا يمضي الرجل مستصحبًا لقوة المال من أجل الجهاد به لتبليغ الدعوة، وبذلك يجعل كسب المال مطية لربح الأجر عبر الدعوة إلى الله بعد التحرر من قيود وعوائق هذه الدعوة، ولعل المال أحد أكبر هذه القيود وأخطرها. كما عبر عن ذلك فحول الدعاة عبر العالم، وهو ما بينه كولن بقوله: "فكم شهد الماضي من رجال ومن سلاطين كبار أصبحوا أسرى للمال الغدار. وكم من مرة استغلّ هذا الضعف الموجود في فطرة الإنسان فمحيت مجتمعات وذلت أمم. ولكن مع هذا، فإن انتشار الدين في العالم معتمد الآن على النقود، أي على الرأسمال أيضًا وعلى قوة تمويل المشاريع الدعوية". نعم، التاريخ يشهد -ولا زال- أن جل أهل السلطان يريدون أن يستعبدوا الكثير من أهل القرآن، ويجعلوهم طاقات جاهزة لنفخ الروح في دعواتهم وطموحاتهم كلما احتاجوا إلى نفخة منهم. لذلك يعتبر باب المال من أقوى الوسائل التي يستعملونها في ترغيب وترهيب العلماء والدعاة. وقد ميز العلماء

لقد حاز صحابة رسول الله ﷺ الدنيا من أطرافها، إلا أنهم جعلوها مطية للآخرة، ولم يغتروا بأموالهم ولا بسلطانهم فينحرفوا عن المبادئ التي من أجلها تحركوا.

حراء

المجتهدون اليوم بين جمع المال من أجل المال وجمعه من أجل الخير والبناء والدعوة إلى الله تعالى. وهذا هو درب الجيل الفريد من صحابة رسول الله ﷺ. يقول الأستاذ فتح الله كولن مؤكدًا ذلك: "يجب ألاّ يُهمل موضوع التمويل المادي، ولكن بشرط أن تكون النصوص الإسلامية من آيات وأحاديث وتصرفات الرسول ﷺ قدوة ونبراسًا لنا. أجل، يجب أن يكسب المسلم ويكون غنيًا، لكن على شرط ألا يستولي حب المال على قلبه. بل يضع ذلك المال في مكان "حرز" -بتعبير الفقهاء- بعيد عن يد اللصوص، ثم يصرفه في وجوه منافع الأمة. فلولا هذا التمويل، هل كان يمكن تحقيق هذه المشاريع الكبيرة؟".

ليس هذا فحسب، بل الجميل في الموضوع هو أن بذور ذلك الفهم الواقعي لنصوص القرآن الكريم والصدق في تبليغها للناس، أنتج ثمارًا ثمينة في كل أرجاء العالم. نعم، كان الأغنياء -ولا زالوا- يجاهدون بأموالهم رغم كل الظروف الحرجة التي يمرون منها. إلا أن هناك فئة عريضة اليوم، اعتبرت كل المضايقات التي تلاقيها في سبيل جهادهم المالي، هي الدليل على صدق إيمانهم ورشد أعمالهم. إن الذين يتحدّون المكائد والتهديدات التي تهدف إلى ثنيهم عن طريقهم النبيل وجهادهم العظيم، إنهم يحيُون بذاك زمن عثمان بن عفان ﷺ. وإن الذين ينفقون على طلبة العلم أو الأرامل أو المشاريع الإعلامية، هم الذين يعيدون ذكريات التاريخ المجيد، لتمتلك الأمة زمام أمرها بيدها وتعول على أبناء جلدتها المخلصين، لدفع كيد الكائدين وخيانة الخائنين لرسالة الأمة وسرقة آمالها في زمن العولمة المتوحش. ■

(*) جامعة أبي شعيب الدكالي، مدينة الجديدة / المغرب.

hiramagazine.com

د. عمر أنور الزبداني*

السياسي الكبير
نظام المُـلك

حَفَل تاريخ الإسلام بالعديد من العظماء، الذين حملوا رسالة الإسلام بإخلاص، ودعوا إلى الله على بصيرة، وجاهدوا في الله حق جهاده... وخلَّد التاريخ أسماءهم، ولا زال الجيل بعد الجيل يلهج بذكرهم ويعتز بالانتساب إليهم، ويتخذ منهم منارات هدى على دربه الطويل.

وكان من السياسيين الأعلام الذين لم يُعْطَوا حقهم من الدرس والبحث؛ الوزير الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بـ"نظام المُلك"، الذي كان من أكابر الوزراء في الدولة السلجوقية. حيث كانت له أياد بيض في خدمة الدولة، والدفاع عن عقيدتها، والوقوف في وجه أعدائها... وقد كرس حياته كلها من أجل رفع شأن الدين. فحارب الباطنية والمبتدعين، وآوى العلماء إلى ركن شديد، وبنى المدارس لطلبة العلم، وقدَّم يد العون للفقراء، وأنجز الكثير من الخدمات للدولة، ثم قضى نحبه شهيدًا.

لقد كتب الله لهذه الشخصية الفذة أن تظهر في فترة حرجة من تاريخنا الإسلامي، وهي فترة القرن الخامس الهجري، حيث عَظُمَ فيها أمر الفِرَق الباطنية، واستفحل شرها، وتطاير شررها في العديد من أصقاع العالم الإسلامي... وقد بذل هذا السياسي الكبير الجهد الكبير في سبيل حماية دولة الإسلام، وتثبيت أمرها، ورفع شأنها، والتصدي للكائدين لها، الذين كانوا يعملون ليل نهار للقضاء على الإسلام وأهله.

المولد والنشأة

تذكر بعض كتب التراجم أن الحسن بن علي بن إسحاق، وُلد بنواحي "الراذكان"، وهي بلدة صغيرة تابعة لمدينة طوس إحدى مدن إقليم خُراسان. وكان أبوه من التجار

الذين يعملون في البساتين، ومن أصحاب السلطان الغَزْنوي محمود بن سبكتكين (ت ٤٢١هـ)، وتوفيت أمه وهو رضيع.

كانت حياته منذ أن كان طفلاً حياة جدٍّ واجتهاد، فلم يُعرف عنه لهو ولا لعب، ولم يخلد إلى دَعَة ولا راحة، ولم يستكن إلى لذائذ الحياة ومتعها، بل عُرف عنه الصبر على الفاقة، والجِدُّ في تحصيل العلم، ومسابقة الزمان، ومصارعة الصعاب. فأتم حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، وفقَّهه أبوه على مذهب الشافعي. ثم بعد وفاة أبيه خرج إلى مدينة غزنة، وخدم صاحب الديوان عميد خُراسان أبا الفضل سوري بن المعتز، فكانت خدماته على منهاج الاستقامة وأدب الصدق والصواب. ثم رَقَتْ به الأحوال إلى أن أصبح وزيرًا للسلطان السلجوقي ألب أرسلان، ومن بعده لابنه ملك شاه.

صفاته وأخلاقه

كان "نظام المُلك" ذكيًا، عالي الهمة، عادلاً، صاحب أناة، كثير الصفح عن المذنبين، عمل بجد واجتهاد على إحياء معالم الدين. ومن أهم الأوصاف التي جُبل عليها احترامه للعلماء، والمبالغة في الخضوع للصالحين، ومحبة أهل الدين وإكرامهم، وإجزال الصلات لهم. وقد استطاع أن يكسب نفوذًا واحترامًا كبيرين في الأوساط الدينية، بما كان يتحلى به من روح دينية، واحترام للزهاد والعلماء والشيوخ، ومعاشرتهم والاختلاط بهم والتحدث إليهم. وكان إذا جلس إلى العلماء جلس مطأطئ الرأس، وهو يسمع جميع ما يجري في المجلس.

ومن صفاته الجليلة أيضًا أنه كان واسع الصدر، يقبل النصيحة ولا يرى فيها جرحًا لشخصه؛ فقد وعظه أبو سعد بن أبي عمامة الواعظ عند دخوله بغداد عام (٤٨٠هـ)، قائلاً له: "وأنت يا صدر الإسلام! وإن كنت وزير الدولة، فأنت أجير الأمة"، فتقبل نظام الملك هذه النصيحة بصدر رحب، ولم ير فيها خدشًا لمكانته، ولا حطًّا من جلالته.

رجل دولة

قبل أن يستلم "نظام المُلك" منصبه الوزاري، عمل مستشارًا لـ"أَلْب أرسلان" حينما كان حاكمًا على خراسان من قِبل عمه "طغرل بك". وعندما تقلد ألب أرسلان مقاليد الأمور أسند لـ"نظام المُلك" منصب الوزارة. وكان السلطان ألب أرسلان يعتمد على وزيره ويثق به كثيرًا. إذ ازدهرت الدولة السلجوقية أثناء وزارته وتوطدت دعائمها، وارتفع شأنها، واتسعت حدودها. وتوّجت جهود ألب أرسلان ووزيره نظام الملك، بالانتصار على الروم البيزنطيين في معركة "ملاذ كرد" الخالدة عام ٤٦٣هـ.

بعد وفاة السلطان ألب أرسلان عام ٤٦٥هـ، تولى السلطة ابنه الأكبر "ملك شاه"، الذي بدوره أسند مقاليد الوزارة لـ"نظام المُلك" ووضع فيه ثقته؛ حتى تستقر الأوضاع في الدولة التي كان يضعفها صراع الأمراء على السلطة. وأدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان السلجوقي "ملك شاه" ووزيره الفذ، إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد. فاتسعت حدودها حتى شمل سلطانها بلاد الشام وأجزاء من بلاد الروم، ومدت نفوذها إلى كرمان وآسيا الصغرى، وأصبحت دولة مترامية الأطراف، تمتد من الصين والهند شرقًا، إلى البحر الأبيض المتوسط غربًا، بل صارت أكبر قوة في العالم آنذاك.

منذ أن تسلم نظام الملك منصبه الوزاري، سعى إلى بناء دولة قوية على أساس الدين، معتبرًا أن المقوم الأساس في بناء الدول إنما هو العدل.

كان نظام الملك يرى في الفِرَق الباطنية عدوًّا خطيرًا للإسلام والمسلمين. ويؤكد على أن غايتها هدم الإسلام، وأن أساس مذهبها إسقاط تكاليف الشريعة جملة وتفصيلاً؛ من تحليل شرب الخمر، واستباحة الأموال والنساء. ومن هنا، فقد كرس جهوده في هذا

لم يتخذ نظام الملك من منصبه وسيلة لجمع المال، وبناء القصور والبنيان، بل كان صاحب مشروع؛ إنه سعى إلى وَضْع أسس قيام دولة إسلامية، مبينًا المنهجَ الذي ينبغي على السلطة السياسية أن تسلكه لتحفظ أمر دينها، وتحافظ على أمنها.

hiramagazine.com

الجانب لكسر شوكة الباطنية، والقضاء عليها قضاء مبرمًا، حفاظًا على دين الأمة ووحدتها. وقد حقق في هذا المجال شيئًا ليس بالقليل، بل ليس من المبالغة القول هنا: إن ما قام به نظام الملك في هذا الصدد كان من أهم إنجازاته، وكان من أهم ما خدم به عقيدة الإسلام والمسلمين. ولولا سياسته الحازمة، وموقفه الصلب تجاه فِرَق الباطنية، لكان لدولة الخلافة عمومًا ودولة السلاجقة خصوصًا، شأن آخر وتاريخ مغاير.

بذل نظام الملك جهده للقضاء على الباطنية حيثما وجدوا. وكانت نيسابور بوصفها مركز إقامته، والقاهرة -عاصمة الدولة الفاطمية- بوصفها الدولة المحركة لكل التحركات الباطنية، وبغداد بوصفها مركز الخلافة الإسلامية، تشكل مبعث قلق واهتمام نظام الملك من ناحية، كما كانت المسرح الذي شهد تنفيذ سياسته الدينية من ناحية أخرى. وبينما كانت الحرب سجالاً عبر الحدود من أجل نشر الدين، كانت الحرب في الداخل حربًا ضد فِرَقِ الباطنية تعنف حينًا، وتخف أحيانًا.

وبالتوازي مع العمل السياسي على الأرض، وضع "نظام الملك" كتابه "سياست نامه" (أي، كتاب السياسة)، كبرنامج عمل في مجال الفكر السياسي، ضمنه عصارة أفكاره وتجاربه، واحتوى على ذخيرة قيّمة يمكن الانتفاع بها لمن يتولى مقاليد الوزارة من بعده. وقد حقق الكتابَ المستشرق الفرنسي "شيفر"، ونشره سنة ١٨٩٣م، وكان أول من أخرجه إلى عالم النور. واعترف المستشرق الروسي "بارتولد" بأنه لا توجد مخطوطة يصح أن تكون وثيقة تاريخية في دراسة عهد السلاجقة، ونُظُم الحكم في القرن الخامس الهجري، غيرها.

رجل علم

لم يغب عن نظام الملك -وقد أراد لأمته دولة إسلامية متحدة- أثر العلم في تكوين دولة الإسلام، وتشييد مؤسسات العلم التي تستمد الدولة من خلالها قوتها، وتحافظ على بقائها. فقد أصبحت "النظاميات" بعد فترة من تأسيسها، المراكز الرئيسة التي تبث الوعي الإسلامي السُّني في أرجاء العالم الإسلامي، وكان نظام الملك هو الطاقة المحركة لها بما أوتي من نفوذ سياسي، وانفتاح فكري، وسعة اطلاع.

وإزاء ما كان يحدق بالإسلام من أخطار سياسية، ويَحِيقُ به من تهديدات عقدية مثل الحشاشين الذين كان يزداد خطرهم وتنتشر جرائمهم، والدولة البيزنطية التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر وتؤازر الفاطميين في مصر للانقضاض على الخلافة. كان للحركة الفكرية التي قادها نظام الملك -بالتوازي مع الحركة السياسية والعسكرية- الدور الكبير في القضاء على الفتن، وفي استقرار الأوضاع في أنحاء المناطق الخاضعة للخلافة الإسلامية في بغداد.

وسعيًا لتثبيت أركان الإسلام وإقامة دولة المسلمين، شرع نظام الملك في تأسيس "نظامياته"، وبثها في حواضر العالم الإسلامي. بحيث كانت تلك المدارس (النظاميات) أشبه بالجامعات قبل أن يعرف العالم الجامعات بالمفهوم الحديث. فقد بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهَراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل. ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخُرَاسان مدرسة.

ولم يكتفِ نظام الملك ببناء المدارس في المدن العظيمة والعواصم العامرة والأماكن المشهورة، بل امتد نشاطه العلمي والعمراني إلى القرى البعيدة والمناطق النائية، وهذا يُفهم من قول مترجمي سيرته. فقد ذكرت كُتب السِّيَر أن مدارسه في العلم مشهورة، لم تخلُ بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر -التي هي في زاوية من الأرض لا يؤتى لها- بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة. وذكر القزويني أن نظام الملك، بنى مدرسة في مدينة ظاخر، وعيَّن فيها مدرِّسين وفقهاء، وشرط لكل فقيه فيها كل شهر رأس غنم، وقدرًا من الطعام.

لقد كان هدف نظام الملك الأساس من بناء هذه المدارس، هو حفظ مقومات الدين، وذلك بمواجهة المد الباطني، والحد من تغلغله في المجتمع الإسلامي، حيث كان يرى في الباطنية وأعوانها العدو الأول والأساس للإسلام ودولته. وقد أدرك أن مواجهة هذا الوجود الباطني، لا يتيسر إلا من خلال إقامة قاعدة علمية، ومن

hiramagazine.com

ثم عمل على تشييد هذه المدارس؛ لتكون بمثابة منارات يهتدي بها الناس، ولتكون أيضًا بمثابة حصون ثقافية، يلتجئ إليها الناس تحصينًا لعقيدتهم، وذودًا عن دينهم.

رجل محراب

قليلون هم الذين خاضوا غمار العمل السياسي، وعاشوا في أتونه، واكتووا بناره، ثم حافظوا على العلاقة مع ربهم على النحو المرجو. وقد كان نظام الملك واحدًا من أولئك القليلين. فقد نُقل عنه في هذا الخصوص قوله: "كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة أرض أتقوت بريعها، ومسجد أعبد الله فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه". فهذا النص واضح الدّلالة على ما كان عليه نظام الملك من عبادة لربه، وتوجه خالص إليه، وعزوف عن الدنيا ومغرياتها مع أنها كانت مطروحة بين يديه وممتثلة لطوع أمره.

وقد بلغ نظام الملك الغاية في إقباله على الصلاة، فنقلوا عنه أنه كان يراعي أوقات الصلوات، ويُقيم لها وزنًا. فكان إذا غفل المؤذن عن الأذان ودخل الوقت، يأمره بالأذان، وكان كلما سمع الأذان يُرفع في السماء، يمسك عما هو فيه ويجتنبه ويُجيب المؤذن؛ عملاً بما أخبرت به السُّنة الشريفة، وكان لا يشغله بعد الأذان شغل عنها. فإذا فرغ المؤذن من أذانه، لم يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان محافظًا على الصلوات في أوقاتها محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة. وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات، والإقبال على الله.

رجل أمة

عمل "نظام الملك" على تأسيس دولة فضلى من خلال تحقيق إصلاح جذري لأحوال البلاد المضطربة؛ بجمع القلوب حول أمراء الدولة السلجوقية، وطبعها على الإخلاص لمذهب (أهل السُّنة والجماعة)، بعد أن كانت هذه القلوب متفرقة مزعزعة بسبب فعل الأيادي الأثيمة التي كانت ترمي إلى تحقيق مآربها الشخصية، معرضة مصالح الناس وعقائدهم، بل وحياتهم للدمار والهلاك.

كانت نظرة نظام الملك لمركز الخلافة نظرة احترام وتقدير، وكان هذا الموقف من محاسنه. ولم يكن تعظيم نظام الملك لأمر الخليفة من منطلق سياسي نفعي، بل من منطلق التقرب إلى الله تعالى؛ إذ كان يعتبر أن الحفاظ على هذا المنصب واحترام القائمين عليه، هو حفاظ على الدين نفسه، والنيل منه إنما هو نيل من الدين ذاته.

كان نظام الملك يرى أن الاتحاد بين الشعوب الإسلامية ضرورة سياسية وعقدية، تُمليها الضرورة الإسلامية أمام الزحف الصليبي الخارجي، والخطر الباطني الداخلي. أما كون اتحاد الشعوب الإسلامية ضرورة سياسية؛ فللحفاظ على وحدة الأمة وكيانها في وجه الزحف الصليبي، وأما كونه ضرورة عقدية؛ فللحفاظ على عقيدة الأمة في وجه الخطر الباطني. وإنما كان نظام الملك، رجل أمة وصاحب رسالة. وقد كان إلمامه بالتاريخ الإسلامي عمومًا، وتاريخ الفرس على وجه الخصوص، مساعدًا له في أداء مهمته السياسية على الوجه الأصوب والسبيل الأقوم.

خاتمة القول

لم يتخذ نظام الملك من منصبه وسيلة لجمع المال، وبناء القصور والبنيان، بل كان صاحب مشروع سياسي سعى جهده خلال مدة وزارته إلى تنفيذه. فكانت مصلحة الأمة هاجسه، واستقرار الدولة بغيته، فكان -بحق- أعظم وزراء دولة السلاجقة؛ حيث سعى إلى وَضْع أسس قيام دولة إسلامية، مبينًا -بالفكر والعمل- المنهجَ الذي ينبغي على السلطة السياسية أن تسلكه لتحفظ أمر دينها، وتحافظ على أمنها.

إن هذا الوزير المقدام، لم يمت على فراش الموت، بل مات شهيدًا. وكُتب التراجم متفقة على أن اغتياله كان في رمضان عام ٤٨٥هـ، وكان مقتله في قرية قريبة من نهاوند يقال لها "سَحْنة". وكان قد قال حين وصوله إلى المكان الذي كان فيه مقتله: "هذا الموضع قُتل فيه خَلْق كثير من الصحابة زمن عمر بن الخطاب ﷺ، فطوبى لمن كان منهم". ■

(*) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / قطر.

hiramagazine.com

د. عبد الحميد عشاق*

عندما كان الظلام سائدًا، كنتَ الوحيد الذي نشر نداء الحق ورسالته. الأرض والسماء تشهدان على ذلك وإن أنكره المنكرون. فإياك أن تشتكي، فربّ العزة عارف بالجهود التي بذلتها، فلا تبالِ عرف الناس ذلك أم لم يعرفوا.

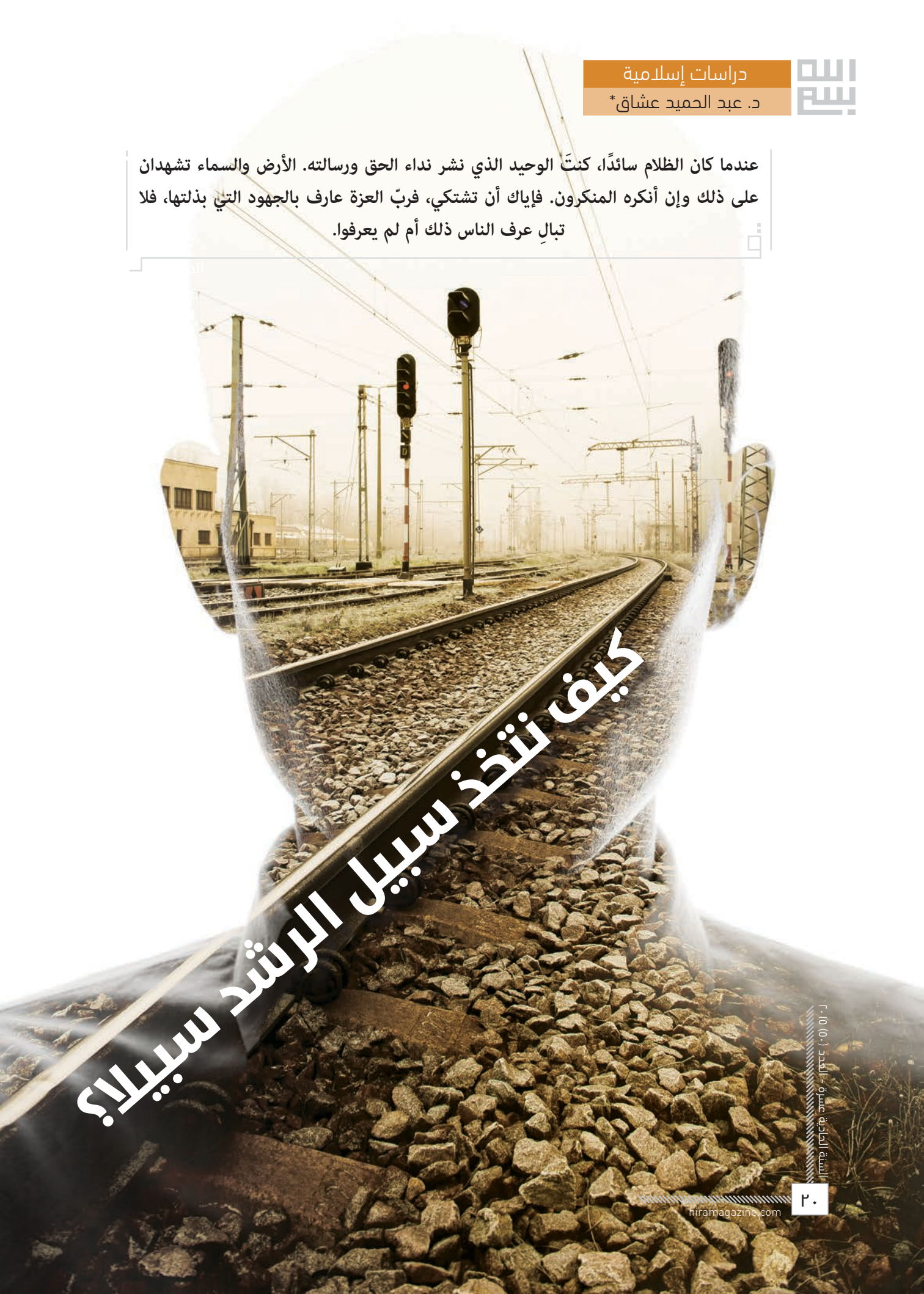

كيف نتخذ سبيل الرشد سبيلا؟

الرشد أمر عام يتناول جوانب الحياة كلها، ويشمل السلوك الإنساني ظاهره وباطنه، ويتعلق بالجانب النظري منه والعملي.. فإذا ألهم المرء الرشد فيما يفكر فيه، وفيما يحس به، وفيما يحاوله ويتصرف به؛ هُدي إلى صراط مستقيم.

حراء

أ

الرشد هو قمة وعي الإنسان واكتماله ونضجه، وصمّام الأمان من أوضاع التحلّل والفساد التي قد تؤول إليها حياة الأفراد والجماعات. إنه أعظم خصال الإنسان الصالح، والجماعة الصالحة، والأمة الصالحة، ولذلكم كثيرًا ما نسمع اليوم عن الحاجة إلى الحَكامة الراشدة، والحُكْم الرشيد، وترشيد الاستهلاك، وترشيد النفقات، والتدبير الأرشد للموارد... وما إلى ذلك.

ولما كان مبنى الرشد على طلب الأكمل والأحسن وتحري الصواب في المواقف والآراء والتصرفات الفردية والجماعية، فإن مشروع الإسلام العام هو صياغة نموذج ثقافي ومجتمعي من الرشد لأنفسنا وحياتنا ومؤسساتنا وعلاقاتنا المختلفة، وترشيد السلوك الإنساني في جميع مناشطه، والارتقاء به إلى أسمى تجلياته ومقاماته. وأساس هذا المشروع وديدنه ودأبه تعليم الرشد، وترسيخ مبادئه وقيمه في الوعي والثقافة والسلوك، وتجديد صلة الأمة به فكرة وتربية ومنهاجًا، والتخلق به علمًا وفعلاً وحالاً. ولذلكم كانت ميادين التربية -ولا تزال- قادح زناد المبادرات التجديدية والترشيدية في الأمة، إما باعتبار التخصص الوظيفي الذي تضطلع به في شحذ الهمم، وتزكية النفوس، وحفز الإرادات على التمسك بالرشد والعزيمة عليه، وإما باعتبار حساسيتها الشديدة للأزمة الفكرية والأخلاقية التي تتشخص في مظاهر التناقض والتخلف والاغتراب بين القول والفعل، أو بين المبدأ والواقع، أو بين الظاهر والباطن، أو بين الشعار وحقيقة الحال، مما يجعل بعض أطراف الأمة في خصومة مع ذاتها ومع التاريخ ومع العصر، أو في حالة فقدان التوازن والانسجام بين الضمير الديني والقيم الأخلاقية، وبين الواقع التاريخي المتغير.

ولا شيء يسرع بالمصالحة بين الضمير الديني والواقع المتغير سوى التزام الرشد واتخاذ سبيله سبيلاً، وهذا جوهر ما يشغل المشروع التربوي الرسالي، ويكابد المشاق والتحديات لتحقيقه وإنجازه:

إنه يقصد إلى المصالحة أو المواءمة بين الدين والدنيا، وبين الأخلاق والسياسة، وبين الأخلاق والاقتصاد، وبين الدين والتدين؛ إذ يتحول التدين في أحيان كثيرة إلى طقوس آلية، ورسوم جامدة، وصور خالية من المعنى، بل يتحول التدين إلى مشروع ضد الدين نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(التوبة:٣٤)، وقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(التوبة:١٩)، وقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:٧٩).

ولطالما نبّه القرآن المجيد إلى آفتين ابتلي بهما أهل الملل السابقة: أولاهما استغلال القداسة؛ أعني أن يأكل المرء بدينه. والثانية التظاهر بالقداسة؛ أعني المراءاة. وفي كلا الحالين يفصل الدين عن روحه، ويحرف عن أصله ومقصده، ويصير مفتقرًا إلى روح ومعنى لاستعادة فتوته وقوّته، على نحو ما صنع الشيخ أبو حامد الغزالي -رحمه الله- بتأليف كتابه الفذ "إحياء علوم الدين". فالحاصل، أن مشروع الترشيد الذي تقترحه الرسالة التربوية الإسلامية لإصلاح السلوك الإنساني، يقوم على مبدأ الموازنة بين جهدين:

الأول: المجاهدة الفكرية والنفسية ضد كل نزوة أو رغبة تحرف الإنسان عن أمانته ورسالته، وهذا يتسق مع مقصد عظيم من مقاصد الشريعة نبه إليه أبو إسحاق الشاطبي بقوله: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا".

والثاني: توحيد وتنسيق جهود المجتمع الإنساني

hiramagazine.com

ضد كل أشكال الطغيان، أو الاستضعاف الناشئة عن وثنية السلطة والثروة والمعرفة المزيّفة التي تبعده عن سبيل الله تعالى. ويمتاز الإسلام بتأطير هذا المشروع بوسائل وتراتيب وأدبيات خاصة ضمن رؤية كلية شاملة، تهدف إلى حفظ نظام العالم واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان؛ ويشمل صلاحه تزكية نفسه، وصلاح عقله وعمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات البيئة التي يعيش فيها.

الرشد في القرآن الكريم

ورد لفظ الرشد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة بصيغ متعددة، لكننا إذا تتبعنا موارده في كتاب الله ﷻ نجده لا يخرج عن المعاني التالية:

• الإيمان والتوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)، وقوله تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾(الجن:١-٢)، والرشد في الآيتين؛ بمعنى الإيمان والتوحيد كما ذكر الزمخشري في الكشاف.

• الهداية والاستقامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(الكهف:١٠)، والمعنى: يسر لنا كل سبب موصل إلى الهداية والرشد.

• الخير والنفع، كما في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾(الجن:١٠)، أي خيرًا.

• الحق والصواب والسداد، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(هود:٩٧)، أي سديد.

• حسن التصرف في الأمور، كما في قوله عز من قائل: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾(النساء:٦)، وهذا المعنى هو الذي نجده متداولاً في اصطلاح جمهور الفقهاء، وبهذا المعنى يكون الرشد ضد السفه.

وهذه المعاني الخمسة للرشد في القرآن الكريم، جميعها لا تخرج عن أصل الاستعمال اللغوي الذي هو الاستقامة والصلاح والاهتداء إلى طريق الخير في الدين والدنيا، وإصابة وجه الأمر وحسن التصرف. أما الرشد في الاصطلاح العام، فهو ضرب من كمال العقل أو نوع من الكمال الروحي والمعنوي، بمعنى أن يكون للإنسان قدرة على تدبير أموره على سبيل الاستقلال والسداد والحكمة، والمحافظة على طاقاته المادية والمعنوية، والانتفاع بها.

ولقد تواردت أقوال أساطين الحكمة والفلسفة على هذا المعنى بملاحظة أن مناط الرشد وملاكه، هو عمل العقل النقدي الصارم الذي ينتج معرفة إبداعية جديدة، أو ببساطة حسن استخدام العقل فيما يعرض له، وحسن استخدام العقل يتعلق في المقام الأول بقواعد المنهج التي لا تترك مجالاً للشك والتخمين، حين تستبعد الفروض المزيفة، والظنون المحتملة، وتنطلق من الاستقلال في التفكير، وعدم الرضا بالتقليد، ووعي الأخطاء على سبيل الدوام ...إلخ.

مبدأ الرشد

وفي هذا السياق يقرر الأستاذ طه عبد الرحمن، أن مبدأ الرشد مبني على ركنين رئيسين، أولهما الاستقلال؛ إذ يستغني الإنسان الراشد عن كل وصاية فيما يحق له أن يفكر فيه، ويتطلع إلى أن يشرع لنفسه ما يجب فعله أو تركه، فترسخ بذلك ذاتيته. وهكذا، فالإنسان الراشد منطلق الحركة قويّ الذات. الثاني الإبداع؛ إذ يسعى إلى أن يبدع أفكاره وأقواله وأفعاله، وأن يؤسس ذلك كله على قيم جديدة يبدعها من عنده، أو على قيم سابقة يعيد إبداعها حتى كأنها قيم غير مسبوقة. وهكذا فالإنسان الراشد لا ينِي يبدع حياته. والرشد أمر عام يتناول جوانب الحياة كلها، ويشمل السلوك الإنساني ظاهره وباطنه، ويتعلق بالجانب النظري منه والعملي، فإذا ألهم المرء الرشد فيما يفكر فيه، وفيما يحس به، وفيما يحاوله ويتصرف به؛ هُدي إلى صراط مستقيم.

أما حين يسلب الرشد فإنه يتخبط خبط عشواء، ويضرب أخماسًا في أسداس، ويظل غارقًا في ظلمات التيه والغي. وقد بين الله ﷻ سبب إضاعة الرشد وفقده في آية عظيمة الشأن فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

hiramagazine.com

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٤٦). وهذه الآية وصف بليغ للإنسان فاقد الرشد -سواء كان فردًا أم جماعة- وفيها دلالة إيماء على أن هذا الموضوع، جدير بأن تتأمل الأمة أصوله وقواعده ومصاديقه في النفس والتاريخ.

ترى كيف فقدنا الرشد؟ وهل تبيّن المجتمع الإنساني الرشد من الغي حقًّا؟ وما حقيقة الرشد وما علاماته؟ وما السبيل إليه؟ وهل يمكن أن يصدق علينا ما أخبر الله به عن قوم من الجن وقد كانوا في غاية الحيرة والتيه: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ لكن لله درهم حين سمعوا القرآن أول مرة، وخالط القرآن شِغَاف قلوبهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۞ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۞ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾(الجن:١٣-١٦). أجل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، كنت دائمًا أسأل نفسي لماذا بلغ اهتمام الجن بمسألة الرشد هذا المبلغ الذي تصوره آيات السورة نفسها؟ فالقرآن في أعلى مقاصده برأيهم دعوة إلى الرشد، والإسلام بكل اختصار هو سبيل تحري الرشد.

والجواب، أن القوم كانوا أصحاب حضارة وعلم وقوة واقتدار لا مثيل لها ولا نظير بالنسبة لمقاييس التجربة الحضارية الإنسانية حتى الآن، ومع ذلك كانوا في قمة التهارج والشقاء والضياع والبؤس. وربما كان ما بلغوه من علم وعلو واقتدار، سبب شقائهم وفتنتهم.

فإذن، حقيقة الإسلام -كما دلّت الآيات- هي تحري الرشد، والتحري بمعنى الحرص الشديد على اتباعه والتزامه، والأخذ بأسبابه، والسير على طريقه. ولكن لا يمكنك أن تتبع سبيل الرشد وأنت لا تعرفه، ولم تميّزه، ولم تتبيّن معالمه. فلذلك كان أفضل طريق للوصول إلى هذا البيان والتبين، سلوك سبيل العلم والمعرفة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف:٦٦).

فالمعرفة ركن أساس، ومقدمة ضرورية لتحصيل الرشد. فهل من سبيل إلى تعلّم الرشد؟ هل من سبيل إلى معرفة تكسب صاحبها مَلَكة التمييز بين الرشد والغي؟ كيف نتعلم الرشد في مرابعنا التربوية ومناهجنا التعليمية؟ هل قيمنا التربوية تعترف بقيمة الرشد وتعلي

إذا أردنا للمشروع التربوي الإسلامي أن يسهم في ترشيد السلوك الإنساني، فلا بد أن يستقر على أجنحة الاستجابة والإيمان، والاعتصام بالسنة، والعلم الاستقلالي المبدع.

حراء

من شأنها؟ ولكن لماذا يستجيز بعضهم لنفسه استعمال القهر والجبر والترهيب في التربية والله تعالى يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)؟ كيف يترشّد سلوكنا السياسي والثقافي والاجتماعي؟ وكيف يقوم المجتمع والدولة على مؤسسات راشدة؟

وقد يتداعى إلى الخاطر هنا أنني أسوق هذه الأسئلة محاولة للجواب عنها، كلاّ، إنما المراد إثارة المعنى المغمور، ولفت الانتباه إلى أهمية الأسئلة ذاتها وإمعان النظر فيها. وربما يكون التهمم بالسؤال والاشتغال به أحيانًا، أجدى وأنفع من الاهتمام بالجواب. وأتصور -بالمناسبة- أن مقدمة الرشد وشرطه وبدايته إدمان التفكير في السؤال، والاشتغال بالفكرة كما أثنى الله على خليله سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١)، وقال تاج الدين بن عطاء الله: "الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له". ومعلوم أنه حين تستغلق مسألة ما على فهمنا وتكون محل التباس واشتباه، فمعنى ذلك أننا لم نعطها ما تستحق من النظر والتأمل، وهكذا يبدأ الإنسان بداية خاطئة.

وقديمًا قال فرنسيس بيكون: "إن سبب الانحطاط والتخلف، اشتغال المرء بأفكار وقضايا خاطئة". وفي آية الأعراف التي هي أصل هذا البحث وقوامه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(الأعراف:١٤٦) تنبيه على العلة الكبرى، أو علة العلل التي تجعل الإنسان فاقدًا للرشد، حتى إنه يرى سبيله، ويعرف محجته وطريقه، ومع ذلك لا يتبعه ولا يستطيع السير فيه. هذه العلة هي علة التكبر في الأرض بغير الحق، إنها المشكلة الكبرى التي يعاني منها الإنسان في مختلف أطواره وتجاربه الحضارية. التكبر في الأرض بغير الحق، هو العدو الألد، والداء العضال لمشروع الترشيد؛ إما بسبب ما يحجبه من رؤية أدلة الرشد وحججه ودلائله، وإما بسبب ما يُخلفه في النفس من أسباب الاستخذاء والاستنكاف عن العمل

hiramagazine.com

به. لأن الإنسان قد يعرف الرشد ولا عزم له عليه، وهذه مشكلة أخرى، بمعنى؛ يعدم الإرادة الباعثة على العمل به وبمقتضاه. ولذلكم كان نبينا ﷺ يقول: "اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد" (رواه الإمام أحمد). فلذلك نقرّر هنا ما يلي:

• إن العمل بالرشد والثبات عليه، واستمرار العزيمة عليه، لا يقلّ شأنًا وأهمية عن معرفة الرشد وإدراكه وتبيُّنه، وكلاهما تحدّ كبير، وابتلاء عظيم للإنسان المعاصر بالنظر إلى النسق السلوكي والقيمي الذي تقوم عليه الثقافة السائدة في العالم. عالمنا بحوادثه وفتنه وأحواله يدع الحليم حيران، كأن فلسفته ووجهته تقوم على نبذ الرشد ومناقضته ومحاصرته في أضيق زوايا الحياة. إن عبادة المال، وأصولية السوق، والرّبا، والثراء السريع، والمتاجرة بالحرب، والمتاجرة بالسياسة، والتسلّق الاجتماعي، وحبّ الدعة والترف، والإدمان، والمخدرات، والقمار، والاكتئاب، والطغيان والفساد، واحتراف القتل، والعنف، والعنف المضاد، والحسد، والأنانية، والجنس، والخلاعة، والمثلية، والشذوذ... كلّها متاهات للاستلاب الذي تتورّط فيه الحشود البشرية كل يوم، وتستحوذ عليها مؤثرات مستفزة تسحق وعيها بالرشد، وقدرتها على تمييزه، والعمل به، رغم الاقتدار والتطور الكبيرين الذين حققهما الإنسان في حضارة المعرفة، ومناهج البحث، وتكنولوجيا المعلومات، ووسائل الاتصال، ومصادر الطاقة، ورفه العيش. ولكن مع ذلك هناك مفارقة كبرى بين البعد المادي والبعد الإنساني في أوضاع العالم وأحواله على جميع الأصعدة، كما نبّه عليه الباحث الأمريكي صاحب كتاب "جنون القوة" بقوله: "لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر، ولكن أقدامنا على الأرض غائصة في الوحل". فإذا أردنا للتصوف أن يقوم بدور رسالي رائد في تصحيح هذه المواضعات وترشيد السلوك الإنساني، فعليه أن يعمِد أولاً إلى تحريره من كارثة الاستلاب الثقافي والقيمي التي تسكن في قلب ثقافة العصر، والتي يتردّى في أتُونها يوميًّا خلق غفير من الناس. ومعنى التردّي هنا عدم القدرة على ضبط النفس، وفَقْد الاستعداد الفطري للتسامي والارتقاء إلى فعل الأفضل.

وأختم هذا البحث بآيتين عظيمتين لا بد أن ينطلق منهما مشروع الترشيد في صياغة مفرداته وبرامجه واقتراحاته، لتحقيق مزيد من العمق والفعالية والسداد:

الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

والثانية قوله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. فمشروع صناعة الرشد لا بد أن يقوم على ثلاث دعامات متكاملة متساندة هي:

• دعامة "فليستجيبوا لي": إذ الاستجابة لأمره مع الإيمان، هو الذريعة إلى جميع قيم الرشد ومحاسنه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فلا رشد مع الغفلة وانقطاع الصلة بالله والاستهانة بأمر الله وطاعته، ولا رشد مع جفاف الروح وهزالها، ولا رشد مع التكبر في الأرض بغير الحق، وترك الإذعان للأدلة والتسليم بها.

• ودعامة السنة: إذ السنة هي الرشد كله، ولذلك نبه الله ﷻ على ضرورة الحرص على اتباعها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾، "وابتداء الجملة بـ"اعلموا"؛ للاهتمام، وقوله: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير، فالمقصود إعلام الأمة باتباع ما شرع لها رسول الله ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لمزاجها ورغبتها. وليتأمل بعد ذلك كيف جمعت الآية في إيجاز وإعجاز أسباب الرشد بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وكيف نبهت إلى نواقضها وأضدادها بقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

• ودعامة الاستقلال المبدع الذي يستدل عليه بحسن التدبير، وصحة النتائج، وصلاح الأعمال، وإصابة مراشد الأمور ومقاصدها، وفي الآثار "ولا عقل كالتدبير" ومن ثمارهم تعرفونهم.

فإذا أردنا للمشروع التربوي الإسلامي أن يسهم في ترشيد السلوك الإنساني، فلا بد أن يستقر على أجنحة الاستجابة والإيمان، والاعتصام بالسنة، والعلم الاستقلالي المبدع. ■

(*) عضو المجلس الأكاديمي للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

hiramagazine.com

د. لطف الله خوجه*

لو انهدمتْ صروح دعوتك، وتبددتْ قواها شذَرَ مَذَرَ، لا تفقد إيمانك. وعُدْ من جديد للبناء ولو من نقطة الصفر. كن ذا عزيمة لا تقهر، وإرادة لا تنهزم. وإياك أن تستعلي على الآخرين أو تَمُنُّ عليهم، بل ابقَ واحدًا منهم، لا تتميز عليهم رفعةً، ولا ترق فوقهم علوًّا.

الموازين

منهج الإصلاح في القرآن

حاجات الإنسان والمجتمع والأمة أربعة، هي الأمن والكفاية والصلاح والانتصار. بحصولها تتم النعمة وتستكمل الحقوق، لكن قد يعكر عليها أشياء مانعة تمنع منها، فيقع ضدها الخوف بدلاً من الأمن، والجوع بدلاً من الكفاية، والفساد بدلاً من الصلاح، والهزيمة بدلاً من الانتصار. والناس في العادة لا يلتفتون إلى السبب الحقيقي المانع، بل يبحثون عن أسباب ثانوية يحمّلونها وزر ما حل بهم. فما السبب الحقيقي لما يحل بالناس من أمور تمنع عنهم تلك النعم الأربعة، وتحل بهم النقم الأربعة، وما الأسباب الثانوية؟

لنقف أولاً على الأسباب الثانوية التي تقع على الناس فتمنع عنهم النعم، إنها بعد التأمل:

١- كوارث ومصائب طبيعية تنزل بالإنسان أو الأمة؛ فأما التي على الإنسان فهو ما يجده من الشؤم والعذاب في نفسه، من ضيق وقلق واكتئاب وضعف ووهن وعدم توفيق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(طه:١٢٤).

وأما التي على الأمم فتكون في صورة زلازل أو براكين أو أعاصير أو فيضانات ونحوها، تأخذ كثيرًا من الناس، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الأحقاف:٢٤).

٢- جور السلطان؛ فإما أن يكون جبارًا ظالمًا يسومهم العذاب، أو مضيعًا للأمانة.

٣- عدوان معتد، فيحتل الأرض، ويسلب المال، ويستولي على الأملاك.

هذه أسباب مباشرة للنقم الأربعة المانعة من النعم الأربعة، وهي أسباب ظاهرية يقف وراءها سبب غير مباشر هو أصل البلية وسبب النقمة. ولمعرفة ما هو، علينا العودة إلى كتاب الله تعالى بالتدبر والتأمل، فإنه فيه هداية ترفع الضلالة، وشفاء ورحمة ترفع العذاب، وعلم يرفع الجهل، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩).

وإذا ارتفعت الضلالة والعذاب والجهل، ذهبت النقم الأربعة التي هي الخوف، والجوع والفساد والهزيمة. فهذا القرآن ينبؤنا أن لديه حلاً وعلاجًا لمشكلاتنا الكبرى، فماذا يقول فيها؟

يقول: إن ما يلحق بنا من نقم سببها منا؛ من أنفسنا، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل:١١٢)؛ بينت الآية سبب زوال نعمتي الأمن والكفاية، إنه الكفر بأنعم الله. فلما كفرت ألبسها لباس الجوع بدلاً من لباس الشبع، ولباس الخوف بدلاً من لباس الأمن، وكفرانها إما جحودها نعمة الله عليها بالادعاء أنها حصلت نعمها بقوتها وحيلتها، كقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، أو نسيانها شكر الله تعالى على ما أنعم؛ بالقيام بحقها من طاعة وترك معصية.

آية أخرى في المعنى أيضًا، قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١)؛ سبب فساد البر والبحر هو ما كسبت أيدي الناس من الخطايا، وهذا تعبير قرآني؛ أي ما وقعوا فيه من الذنوب باختيارهم وإرادتهم وهواهم. وآية ثالثة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥).

هذا في معركة أحد، كان المسلمون من النصر قاب قوسين أو أدنى، وكان الرماة على الجبل، قد أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا مكانهم ولو تخطفهم الطير، فلما رأوا المشركين مدبرين تاركين وراءهم السلاح والمال، نزلوا عن الجبل يبتغون الغنائم، فدار المشركون من ورائهم فصعدوا الجبل، فأعملوا فيهم بالسلاح، فقتل منهم من قتل. فكان سبب هزيمتهم عندئذ هو إقبالهم على الغنائم، وتركهم وصية رسول الله ﷺ، فدل هذا على أن الإقبال على الدنيا -بتقديمها على أمر الله تعالى- يورث الهزيمة.

ثلاث آيات بينت لنا بيانًا شافيًا كيف تزول النعم، وتحل النقم، فهي:

١- كفران النعم بجحودها أو نسيان شكرها، فهذه تورث الخوف والفقر.

٢- اكتساب الخطايا بالأيدي، وهذه تورث فساد البر والبحر والجو والحال.

٣- الإقبال على الدنيا، وهذه تورث الهزيمة بيد الأعداء.

كما بينت طريق التخلص والوقاية من هذه النقمة، وذلك باجتناب هذه الأسباب المشؤومة.

إن القرآن خط قاعدة تبين سبب كل تغير يلحق بالناس، سواء من النعمة إلى النقمة، أو من النقمة إلى النعمة، حين قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الأنفال:٥٣)، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

hiramagazine.com

إذن، ابتداء التغيير يكون من النفس ذاتها، فلا يغير الله تعالى على إنسان حالاً هو فيه، أو الأمة حالاً هي فيه، حتى يكون البدء من النفس لا من الله تعالى. فقد يكون الناس في نعمة تامة استوجبوها بإيمانهم وصلاحهم وكفهم عن الخطايا، فإذا ما غيروا إلى الكفران والفساد واقتحام الذنوب، استوجبوا حينئذ تغيير ما بهم من نعمة إلى نقمة، والعكس صحيح. لن يغير الله ما بهم من نقمة إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من كفر بائس وعمل ساقط.

وهذه قاعدة قرآنية في حق المؤمنين، أما المجرمون فلهم قاعدة أخرى؛ يمدهم بكل ما يشتهون، يجمع عليهم حججًا ليوم القيامة ليشتد عليهم العذاب يومها، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٩٦-١٩٧). فأما المؤمنون فإنه يبادرهم بعقوبته في الدنيا لأمرين:

الأول: يكفّر بها خطاياهم تلك إنْ هم احتسبوا وصبروا على ما أصابهم لعلمهم أنه منهم.

الثاني: يمنع عنهم بعذاب الدنيا عذاب الآخرة الذي هو أشد، فمن عوقب هنا أمن هناك: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾(النساء:١٢٣).

من الآيات القرآنية التي تبين سبب تحصيل النعم، آيات الاستغفار. قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾(نوح:١٠-١٢).

نعمة الكفاية في الرزق في هذه الآية بادية، بل ما نزلت إلا لها. فملازمة الاستغفار يورث الغنى بالمال والولد، والمساكن الطيبة في مواضع هي جنات فيها ثمر ونهر. وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(هود:٣).

ذكر هنا ثمرة الاستغفار وهي المتاع الحسن، وبه تحصل الكفاية في الرزق، والصلاح في أحوال الناس، فلا فساد بينهم يفسد على المرء هذا المتاع الحسن.

سبيل القرآن لمن أراد صلاح حال نفسه، أو حال الناس والأمة؛ أن يبدأ من النفس، ولا يبدأ من خارج كما يبدأ ويتقدم به أكثر الناس، فإنهم إن رأوا خللاً عالجوه من فروعه الظاهرة، وغفلوا وجهلوا جذوره الباطنة؛ لذا لا تنجح محاولات الإصلاح لديهم، فتبقى قاصرة عن بلوغ الكمال أو المرجو.

حراء

وذكر من ثمرة الاستغفار ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي كل صاحب له حق يأخذه بلا عنت ولا خوف، فهذا به يحصل الأمن على الحقوق.

وفي آية ثالثة بيان لفضل الاستغفار أيضًا في تحقيق ما يرجوه الناس، قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾(هود:٥٢)؛ في هذه الآية ذكر نعمة المطر، وبها تحصل الكفاية في الرزق، ثم ذكر القوة ثمرة للاستغفار، وبالقوة يحصل الأمن والانتصار على العدو. وهكذا تجتمع كافة النعم الأربعة وهي؛ الأمن والكفاية والصلاح والانتصار، تحت ظلال الاستغفار الذي معناه طلب الوقاية من آثار الذنب.

هذا سبيل القرآن لمن أراد صلاح حال نفسه، أو حال الناس والأمة؛ أن يبدأ من النفس: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، ولا يبدأ من خارج كما يبدأ ويتقدم به أكثر الناس، فإنهم إن رأوا خللاً عالجوه من فروعه الظاهرة، وغفلوا وجهلوا جذوره الباطنة؛ لذا لا تنجح محاولات الإصلاح لديهم، فتبقى قاصرة عن بلوغ الكمال أو المرجو، كمن يظن أن إصلاح الأمة المنحطة والمتأخرة والمغيبة، يبدأ من تغيير الحاكم. فكم من حاكم تغير بأي وسيلة كانت، ثم بقيت الأمة على حالها من الانحطاط والتأخر عن الاستجابة لأمر الله تعالى. إنما البدء بما بدأ به القرآن ثم سار عليه الأنبياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(محمد:٧-٨). ■

(*) أستاذ بجامعة أم القرى، مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. نبيل طنطاني*

التربية على فن إلقاء السؤال

إن السنة وعاء تربوي، ينهل من معينه -الذي لا ينضب- العلماء والقادة والمربون؛ في إبداع أحسن الوسائل التربوية التي ترشدهم في توجيه المتعلمين إلى أن يكونوا في صفوة الأذكياء وخيرة الأصفياء. ومن بين أبرز الوسائل التعليمية التي استخدمها رسول الله عليه الصلاة والسلام في مجالسه التربوية، هي إلقاء السؤال. وقد مشى فيه عليه الصلاة والسلام على نقل المتعلمين من عالم المادة إلى عالم الروح، ومن الجسد إلى العقل، ومن الاستماع إلى الانتفاع، ومن الإلقاء الشفهي إلى الارتقاء العرفاني. هذه المقاصد كلها رسّخت في نفوس المتعلمين الحكمة في أروع صورها، والسؤال ما جعل مجالس النبي ﷺ تحفها بركات العلم، وتدفع المتعلمين إلى تسخير كل طاقتهم العقلية، ومواهبهم الفكرية وقدراتهم الوجدانية... في استنباط أصلح الأحكام وأحسن الاختيارات التي تنقلهم في عالم الأكوان من المشاهدة إلى الشهود، ومن الأخذ إلى البذل، ومن الضيق في الفكر إلى السعة في رحاب الوجود. فهذه هي السنة التي صنعت العقول وأنتجت الأفكار، وتربى في مجالسها عظماء النفوس، وأساطين العلوم، الذين اصطفاهم الله أن يكونوا من خير الأمم. والمتأمل في طبيعة الأسئلة التي وُجهت إلى رسول الله ﷺ في شتى المناسبات، أو ألقاها رسول الله ﷺ في مجالس معينة، سيجدها أنها دونت في السنة النبوية، لتضع بصمات

تربوية وهي تعليم الناس فن إلقاء السؤال؛ وهو ما لا يتحقق إلا بشروط منهجية ومقاصد تربوية تفهم من التأمل في مجموعة من الأحاديث النبوية، وهي:

أن يخاطب السؤال أعماق النفس البشرية من الوجدان والقدرات والقيم والمعارف، ويشمل مناحي الإنسان وطاقاته الظاهرة والباطنة: وهذا يميز الأسئلة النبوية الموجهة إلى المخاطبين في قضايا الخلق والوجود، وهي أسئلة تأخذ بلب الإنسان نحو الاستسلام إلى أحكام الله وسننه في الكون، ومثاله في السنة ما جاء عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: "هي النخلة" (رواه البخاري).

أن يرتبط السؤال بمناسبة، تقتضي من المربي أن يغتنمها لتمرير رسائل الخير في نفوس المتعلمين، حتى يقتنعوا بالعبرة من المشاركة أو الحضور في تلك المناسبة: ومثال ذلك ما جاء في البخاري عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: "يا أيها الناس أي يوم هذا؟" قالوا: يوم حرام، قال: "فأي بلد هذا؟" قالوا: بلد حرام، قال: "فأي شهر هذا؟" قالوا: شهر حرام، قال: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا". فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه فقال: "اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت؟"، وهذا السؤال فهم منه حبر الأمة عبرًا ودروسًا ثم قال ابن عباس ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصية إلى أمته ﷺ: "فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض". فانظر إلى المربي كيف أحسن اغتنام فرصة اجتماع الناس في الحج الأكبر، ليرسخ في نفوسهم مقاصد الشريعة التي جاءت من أجل حفظها في الأنام، وهي حفظ النفس والمال والعرض.

أن يكون السؤال يتوخى انتباه المتلقي، ليراجع سلوكاته وتصرفاته الخاطئة ويوجهها التوجيه الصحيح، وينطلق من معرفة السائل لواقع المتلقي، وما يحيط به من أحوال تستوجب من السائل أن يصححها عن طريق السؤال:

كان السؤال في السنة النبوية حمّالاً لآمال التغيير في نفوس السامعين، يوجههم إلى الميل نحو الرشد التربوي، والاهتداء إلى أقوم المكارم التي تجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

ومثاله ما جاء في البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الله، ألَمْ أُخبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل"، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: "فلا تفعلْ، صمْ وأفطِر، وقمْ ونمْ، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا، وإن بحَسْبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر". فشَدَّدْتُ فشُدِّدَ علَيَّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة؟ قال: "فصمْ صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه"، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: "نصف الدهر". والمتلقي لم يفهم العبرة من السؤال الذي وجهه إليه المربي محمد ﷺ الذي لا يسأل إلا لعلم وعبرة مقصودة ترسيخها فيه، ولهذا كان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ.

أن يكون السؤال هادفًا، يحمل في ألفاظه رسائل موجهة للأفكار ومرسخة للقيم ومصححة للمفاهيم: ومثال ذلك ما جاء في البخاري عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوَقَفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه". ففي هذا الحديث النبوي تنجلي لمسات تربوية مشرقة للمربي محمد ﷺ في حث الناس على التعلّم والعلم، فاختار ﷺ السؤال رسالة موجهة للاختيارات التي يختارها الإنسان في التعلم. فقد اغتنم حدثًا طرأ في الحال، وهو قصة النفر الثلاثة، واستنبط منه درسًا في حسن الإقبال على العلم

hiramagazine.com

والتعلم بدون أن يطيل على الناس في النصح والإرشاد.

أن ينشئ في نفوس السامعين الرغبة في الاستزادة من تمثل العلم والحلم والاجتهاد في المسائل: ومثاله عن الحارث بن عمرو عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: "كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟" قال أقضي بكتاب الله، قال: "فإن لم تجد في كتاب الله؟" قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: "فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟" قال: أجتهد رأيي. (رواه الترمذي)

أن يفتح السؤال الباب أمام السامعين للمشاركة جماعة في الإجابة عنه، وحثهم على عدم الاقتصار في التفكير على المتعارف عليه، لأن المطلوب فيه هو الغوص في أعماق الأفكار وبواطن الأشياء. قال رسول الله ﷺ: "أتدرون مَن المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: "إن المُفْلِس مِن أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار" (رواه مسلم).

أن لا يكون الغرض من السؤال السخرية والتهكم والاستهزاء: ومثاله ما جاء عن عبد الله ﷺ قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خَرِب المدينة وهو يتوكّأ على عَسيبٍ معه، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سَلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يَجيءُ فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لَنسألنّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥).

أن يكون السؤال دقيقًا من حيث العبارات والألفاظ والمقاصد، ويكون مختصرًا ما أمكن، تنتفي فيه معاني التعميم والإرسال، ويكون مركزًا يوصل إلى الغرض المطلوب، دون أن يشوبه الاضطراب واللبس: عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك"، قال: ثم مَن؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك" (رواه البخاري).

أن يكون السؤال يتميز بالوضوح، لأنه كلما كان واضحًا، كان الجواب يسيرًا يبعث على النشاط، ويحد من الملل: ويمثل له بما جاء في البخاري في حديث أنس بن مالك ﷺ أن ضِمَام بن ثعلبة سأل النبي ﷺ فقال: نشدتك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ونَعَمْ"، قال: فأنشدتك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ونعَمْ"، قال: فأنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر في السنة؟ قال رسول الله ﷺ: "اللهم ونعَمْ"، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتَقْسِمَها على فقرائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ونعَمْ"، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي".

أن يكون السؤال على أكمل المراتب وأحسن المطالب، يرتقي بالإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الأرض إلى السماء: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: "أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمُلُ الغنى، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغتْ الحلقومَ"، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان".

أن يكون الجواب عن السؤال يفتح الباب لاختبار النفس، وإخضاعها للتجريب والتحليل والمقارنة: جاء في البخاري عن عائشة ﷺ أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أينا أسرع بك لُحوقًا؟ قال: "أطولكنّ يدًا"، فأخذوا قصَبَة يذرعونها، فكانت سَودةُ أطولهنّ يدًا، فعلِمْنا بعدُ أنما كانت طولَ يدها الصدقةُ، وكانت أسرعنا لُحوقًا به، وكانت تحب الصدقة".

أن لا يخرج السؤال إلى حد الانحراف والتطرف والغلو والتشديد؛ لأن المطلوب في السؤال هو تحصيل التوسط في المآل، والاقتصاد في الغاية. ومراعاة هذا المبدأ تجعل المربي، يراعي الفروق الفردية بين الناس،

hiramagazine.com

ويخاطبهم بما لا يخرجهم عن مدارج الحق، ومواطن الصواب. ومثاله ما جاء في البخاري عن أنس بن مالك ﷺ يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأَرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

أن يتضمن السؤال الإشارات والعلامات الدالة على الجواب: ومثاله ما جاء في البخاري عن عائشة ﵂ قالت: قلت يا رسول الله، أرأيت لو نزلتَ واديًا وفيه شجرة قد أُكِل منها، ووجدتَ شجرًا لم يؤكل منها، في أيِّها كنتَ تُرْتِعُ بعيرَك؟ قال: "في التي لم يُرتَعْ منها"، تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بِكْرًا غيرَها.

أن يتضمن السؤال حسن الظن بالمتلقي، ولا يكون الهدف منه التنقيص منه وإيقاع المتلقي في الوهم والحيرة: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ انصرف مِن اثنتين، فقال له ذو اليدين؟ أَقَصُرَتْ الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "أَصَدَقَ ذو اليدين؟" فقال الناس: نعم، فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أُخْريَين، ثم سلّم، ثم كبّر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع ثم كبّر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع وسلّم".

أن يكون صادرًا من بُعد النظر وعمق الفكر؛ لأنه إذا انعدم النظر، يكون الجواب قاصرًا لا يحيط بالواقع المرغوب في فهمه وتحقيق مناطه. مثاله ما رواه البخاري عن أنس ﷺ: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال ﷺ: "وماذا أعددتَ لها؟"، قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: "أنت مع من أحببتَ". قال أنس ﷺ: فما فرِحْنا بشيء فرَحَنا بقول النبي ﷺ: "أنت مع من أحببتَ".

أن يكون السؤال واقعيًّا، أي قريب التحقق في الواقع، وتدعو إليه الحاجة والضرورة: عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: "إذا رأت الماء"، فغطت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: "نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها".

أن لا يكون السؤال غاية في حد ذاته: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي موسى ﷺ قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أُكثر عليه غضِب، ثم قال للناس: "سلوني عما شئتم"، قال رجل من أبي؟ قال: "أبوك حذافة"، فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: "أبوك سالم مولى شيبة". فهذا السؤال لا معنى له، فالسائل يسأل من أجل السؤال، فلو عرف أن السؤال شُرع لغاية لما سأل، ولهذا كره النبي ﷺ ذلك.

أن لا يُخرج السؤال المتلقي من علم إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى، وينقله حتى تنفلت منه كل العلوم والأفكار: ومثاله ما جاء في البخاري عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمِع ما قال فكَرِه ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: "أين أراه السائلُ عن الساعة؟".

خاتمة

كان السؤال في السنة النبوية حمّالاً لآمال التغيير في نفوس السامعين، يوجههم إلى الميل نحو الرشد التربوي، والاهتداء إلى أقوم المكارم التي تجعل أمته خير أمة أخرجت للناس. وهو ما جعل الأسئلة النبوية تَقبل التنفيذ والإنجاز من المخاطبين، ولم تكن لغوًا لا يرجى منها نفع ولا خير. وهو ما بث التفاؤل والتحفيز في النفوس للوصول إلى الحقائق، انتهى بهم إلى الاتفاق بينهم على إنجاز مشروع علمي واجتماعي وأخلاقي، وهو مشروع الهدي النبوي في الكون. ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

hiramagazine.com

د. حسن الأمراني*

لا نعرف المستحيل

هَبَّتْ عليَّ الريحُ يومًا تبتغي منِّي عُدولا
وتريدُ منِّي أنْ أميلا
هبَّتْ عليَّ الرِّيحُ، تُلْقي في مسامعِيَ العويلا
وتهزُّ مركبيَ المباركَ ترتجي أملا بعيدًا،
قد تزول الراسياتُ ولنْ يزُولا
فلربَّما وهنَتْ قُوايَ ومِلْتُ عنْ دربي قليلا
ولربَّما عانقْتُ مِنْ وهَني الذُّهولا

لكنني أبدًا سأرجِعُ للطَّريقِ، ولنْ أحيدَ ولنْ أميلا
أنا لستُ أبْغي يا رسولَ اللهِ عن سَنَني بديلا
أنا لستُ أبغِي غيرَ نورِكَ يا رَسُولَ اللهِ يهْديني السَّبيلا
أنا لستُ أعرفُ في هواكَ المسْتحيلا
سأطوفُ في كلِّ البلادِ
أدعو إلى النُّورِ الذي حمّلتني يومًا،
وأنثُره على كلِّ العبادِ
لا فرق عندي بين قاريٍّ وبادي
سأطوفُ هذا الكوْنَ والقرآنُ زادي
سأقومُ يا خيْرَ الأنامْ
لأعلّم النّاسَ السلامَ،
فأنت مصباح السلامِ،
وغايتي دارُ السلامْ
فلتشْهد الدُّنْيا وإن أبطأتُ عَنْ هَدَفي قليلا
أو زاغ زورقيَ المُبَاركُ عنْ موانئهِ قليلا

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

د. رمضان بالجي*

شهود الحال
في القضاء العثماني

لا شك أن العدالة من أسمى الغايات التي سعى الإنسان إلى تحقيقها منذ القدم. وإن الديانات السماوية نزلتْ لترسيخ العدالة وإرساء قواعد الأمن والاستقرار بين الناس. ثم إن مقولة "الظلم لا يدوم" تؤكد على أن الأمم التي عمّرت طويلاً، هي التي أرست دعائم العدل والعدالة بقوة بين أبناء مجتمعاتها. ولا نخطئ إن أدخلنا العثمانيين في قائمة الأمم والدول التي ساهمت بقوة في دعم ثقافة القانون ونشر قيم العدالة النبيلة المرتبطة بالمنظومة القيمية للحضارة الإسلامية.

إن الـسر في اسـتمرارية الدولة العثمانية سـتة قرون، يكمن في إدراك المعنى الحقيقي للعدالة وتطبيقهـا في القضاء. وإن النظام القضائي في الدولـة العثمانية كان قائمًا على مبادئ وأسـس إسلامية سامية.

حراء

الدواوين المركزية

إن مؤسسة القضاء في الدولة العثمانية تختلف من مدينة لأخرى. وإن "ديوان الهومايون" في العاصمة؛ هو المجلس الأعلى الذي يملك السلطة الكاملة في جهاز القضاء. كانت تُعقَد بعض المحاكم في ديوان الهومايون في الباب العالي بعد مجالس الاستشارة حول شؤون الدولة. وفضلاً عن الدواوين التي يعقدها الباب العالي يوميًّا، كانت هناك أيضًا محاكم تسمى بـ"دواوين العصر" وتعقد على مدى ثلاثة أيام في الأسبوع، ومحاكم تسمى بـ"دواوين الجمعة" ويشرف عليها قضاة عسكر الأناضول والروميلي، ومحاكم تسمى "دواوين الأربعاء" ويشرف عليها كل من قاضي إسطنبول، وقاضي منطقة غلطة، ومنطقة أيوب سلطان، ومنطقة أسكدار. هذا وإن هذه الدواوين هي التي شكلت العمود الفقري لنظام القضاء المركزي في الدولة العثمانية.

وبالتالي كان شيوخ الإسلام وقضاة العسكر يقومون بمراقبة القوانين التي يتم صدورها من أجل المصلحة العامة، وبالبحث عن مدى تطابقها مع مبادئ الإسلام وقيمه، وذلك لمنع وقوع الخطأ في المجال القضائي. أما مؤسسة الإفتاء، فبالرغم من عدم تواجدها بشكل مباشر في جهاز القضاء، إلا أنها بفضل فتاويها في مختلف النوازل، تتمتع بمكانة خاصة، وتشكل رقابة دقيقة على جهاز القضاء.

القضاة

يتبوأ القضاة منصبًا مهمًّا في جهاز القضاء وجهاز الإدارة داخل الدولة العثمانية. فالطلاب الذين يتخرجون من المدارس الراقية؛ كمدرسة السليمانية ومدرسة الصحن الثماني، كانوا يُعيَّنون حسب درجاتهم التعليمية، قضاة في أهم المراكز والمدن وعلى رأسها مكة المكرمة والمدينة

المنورة. أما بالنسبة للنظام الإداري، فكان القاضي يملك السلطة الكبرى في المناطق التي يمارس مهامه فيها.

لقد كانت فرمانات السلطان وقراراته حول المناصب، تُرسَل مباشرة إلى القضاة. وكذلك كان كبار رجال الدولة، المسؤولون عن إرساء دعائم القوانين الشرعية والعرفية؛ مثل الصدر الأعظم (الوزير الأول) والقاضي عسكر، والوالي، وقائد القوات البحرية، يوجهون الأوامر إلى القاضي من خلال رسائل تسمى "الرجاء". وكان القاضي يقوم أولاً بتسجيل هذه الأوامر في دفتر السجلات ثم يبدأ بالتنفيذ. كان القاضي يتولى مهمة القضاء، والإدارة، ورئاسة البلدية في آن واحد، وكان كذلك هو رئيس المحكمة الذي يقوم بحلّ النزاعات والاختلافات القانونية التي تنجم بين الناس.

وبالتالي كان القضاة -باعتبارهم المكلَّفين بتطبيق قوانين العرف- ملزمين أيضًا بالإشراف على شؤون مالية الدولة، والعقود المبرمة بين الأفراد والدولة،

hiramagazine.com

وكذلك تنظيم مصادر الدخل للدولة، وتنظيم قوانين الضرائب، ومتابعة أحكام الحظر والمنع.

كما كان القضاة أيضًا، مسؤولين عن متابعة شؤون التجار والحرفيين، وتنظيم أمور النقابات، وتحديد أسعار السوق، وتفتيش نظام الإعمار، ومراقبة الأوقاف، بالإضافة إلى تعيينهم النوابَ، ومديري الأوقاف، والأئمة، والخطباء، وكذلك تفتيش كتّاب العدل، وتفتيش عقود الميراث والزواج، وتفتيش قضاة التنفيذ، وتفتيش الزوايا والتكايا. وكان القاضي أيضًا يشرف على مجموعة واسعة من النواب، والكتّاب، والخدم، والمحضِرين أثناء تسيير الشؤون القضائية. هذا ويملك شيخ الإسلام والقاضي عسكر، حق الطعن في قرارات القاضي، وفي حالات استثنائية، يمكن أن يحال قرار القاضي إلى ديوان الهمايون للطعن أو الاستئناف.

شهود الحال

من الملفت للانتباه في المحاكم الشرعية داخل الدولة

إن وجود شهود الحال في الدولة العثمانية، كان بمثابة العنصر الضامن للعدل والعدالة في المحكمة. حيث كان القاضي قبل إصدار حكمه يلجأ إلى شهود الحال ويستشير معهم، ثم يصدر الحكم. وهذا دليل واضح على دور شهود الحال في تجلّي العدالة في المحكمة.

العثمانية، وجود هيئة رقابية تسمى "شهود الحال" تتابع سير المحكمة حيث يستشير القاضي مع هذه الهيئة ليتلقى منها المعلومات حول القانون العرفي والعادات المحلية.

يشارك شهود الحال في المحاكم بصفة شهودٍ لمؤازرة القاضي على تحقيق العدالة، فهم يتواجدون أثناء المحاكمة من أجل متابعة سير المحكمة ومراقبتها. أما أعضاء شهود الحال فكان يتم اختيارهم من المدرسين، والأعيان، والأشراف في المدينة. وفي بعض الأحيان كان القاضي عسكر ممن يشتركون في هذه الهيئة. كما كان يطلق على هذه الهيئة كذلك اسم "المسلمين العدول" أو "الشهود العدول"، مما يبرز أهمية هذه الهيئة في مجال القضاء.

والجدير بالذكر أن عدد أعضاء شهود الحال غير محدد، إذ بعد ما تسجَّل بعض أسماء شهود الحال، يضاف إلى القائمة عبارة "وغيرهم"، وهذا يشير إلى أن هناك أعضاء آخرين قاموا بالتوقيع على قرار المحكمة لم تُكتَب أسماؤهم. ومن جانب آخر كان يوجد عضو واحد -على الأقل- في هذه الهيئة يمثل المدعي، وعضو آخر يمثل المدعى عليه. ومن الملاحَظ أن عدد أعضاء شهود الحال يزداد في القضايا المهمة الكبرى، ولا سيما في القضايا الخطيرة.

ولا بد في هذا الصدد من الإشارة إلى أن شهود الحال لم يتدخّلوا في قرار القاضي ولم يكن لهم تأثير عليه بالمرة، ولكن وجودهم كان بمثابة العنصر الضامن للعدل في المحكمة، حيث كان القاضي قبل إصدار حكمه يلجأ إلى شهود الحال ويستشير معهم، ثم يصدر الحكم. وهذا دليل واضح على دور شهود الحال في تجلّي العدالة في المحكمة. ولا بد من الإشارة هنا إلى

hiramagazine.com

أن شهود الحال ليسوا شهود عيان على القضية، بل إنهم المراقبون في المحكمة.

كل ذلك يشير إلى آلية الرقابة الموجودة في المحاكم العثمانية من جانب، ومن جانب آخر إلى شفافية المحكمة في انفتاحها للعموم، ومن ثم حياديتها في إصدار القرارات.

بداية نشاط شهود الحال

يبدو في وثائق الأوقاف العثمانية أن هيئة شهود الحال تشكّلت استلهامًا من الآيتين الكريمتين اللتين يقول الله تعالى فيهما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾(البقرة:٢٨٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾(المائدة:١٠٦)، ولعل انتقال الوقف عن طريق الوصية بين الأجيال يعزز هذه القناعة. ولا شك أن تطبيق نظام شهود الحال في المحاكم المحلية، أعطى شكلاً جديدًا للنظام القضائي في الدولة العثمانية.

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية أخذت نموذج شهود الحال من سابقتها الدولة السلجوقية. مثلاً كان وقف "طُرُومْتاي" الذي كان محافظًا على مدينة أماسيا في عهد السلطان غياث الدين كَيْهوسرو السلجوقي (١٢٣٧-١٢٤٦)، واحدًا من هذه الأوقاف التي نرى فيها عبارة "شهود الحال" وبوضوح. ونجد عبارة "شهود الحال" كذلك في وقف مسجد "إِبْلِيكْجي" الذي تم تشييده في عهد إمارة "كرامان أوغولاري". وبالتالي نجد في الجزء الأخير من النص الذي نقش على مدخل وقف السلطان مراد الثاني عبارة: "يقول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد حكم قاضٍ من قضاة المسلمين وبحضور شهود، على صلاحية وشرعية هذا الوقف".

أعضاء شهود الحال

النواب: وهم من كبار رجال المدينة المحترمين. وكانوا يحضرون كل القضايا.

المفتي: فضلاً عن الإفتاء، كان المفتي يحضر القضايا المهمة أيضًا. وكان القاضي إذا تعذّر عليه حلّ قضية، سرعان ما يراجع المفتي ويطلب منه الفتوى حولها. ولا شك أن وجود المفتي بين أعضاء شهود الحال، أكسب لمؤسسة العدالة ميزة خاصة تستحق التقدير.

نقيب الأشراف: وهو موظف مهمته رعاية الأشراف وحماية حقوق الأسياد الذين ينحدرون من نسل الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أخي بابا (رئيس التجار والحرفيين): وهو من أعضاء شهود الحال في المحاكم التي تدور حول التجار والحرفيين. بالإضافة إلى عضويته في شهود الحال في القضايا التي تتعلق بالضرائب، والزواج، والطلاق، والأوقاف، والنزاعات التجارية، والميراث، وتعيين وصيّ للأيتام، وبرعاية العجزة والاعتناء بهم.

الدفتردار (أمين المال): كان دفتردار ولاية قبرص، عضوًا في شهود الحال أيضًا، وهو يسعى أثناء القضايا إلى حل النزاعات التي تقع بين الأطراف من جانب، ومن جانب آخر إلى تأمين حيادية قاضي المحكمة.

إلى جانب هؤلاء الأعضاء ثمة أعضاء آخرون في شهود الحال؛ مثل المُحضِرين الذين يُحضِرون إلى القاضي أصحابَ الدعاوى، ورؤساء الكتّاب الذين يقومون بتحقيق الشكاوى، والكتّاب المُقْسِمين الذين يقسمون الميراث لأصحابها بالعدل، والمقيّدين الذين يقومون بمهمة التسجيل في السجلات، وقرّاء الفتح الذين يتلون سورة الفتح في كل صباح داخل المحكمة.

الخلاصة

في فترة من الفترات كانت مقولة "عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة" راسخة في نفوس المسلمين والمجتمعات الإسلامية، لذا لم يتعذر عليهم إيجاد سبلٍ تُحقّق لهم العدل والعدالة بين أبنائها. من هذا المنطلق يمكن القول إن السر في استمرارية الدولة العثمانية ستة قرون، يكمن في إدراك المعنى الحقيقي للعدالة وتطبيقها في القضاء. ويتضح مما ذكرناه آنفًا، أن النظام القضائي في الدولة العثمانية كان قائمًا على مبادئ وأسس إسلامية سامية. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: رضوان يوسفي.

د. محمد إقبال عروي*

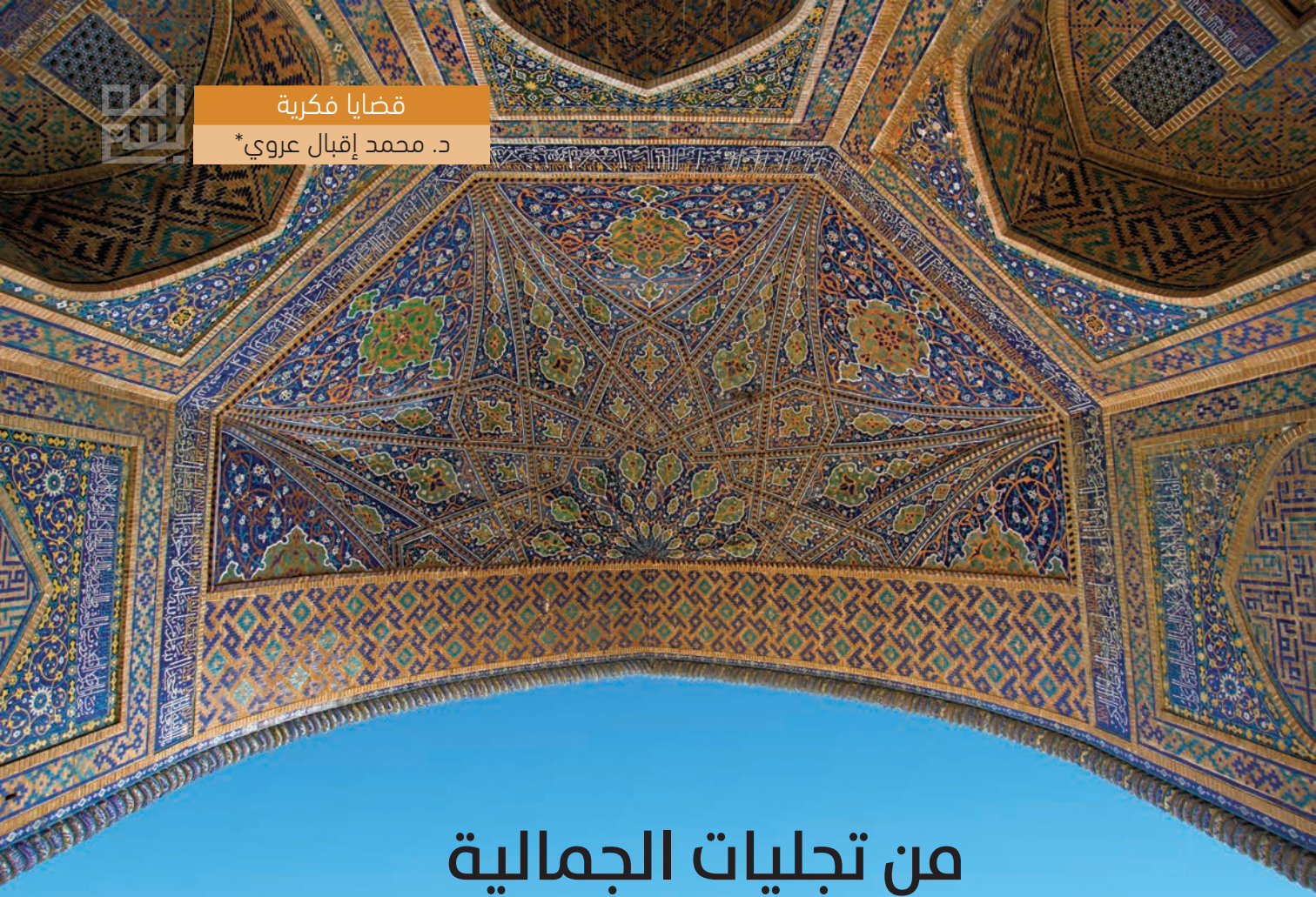

من تجليات الجمالية السليمانية في القرآن الكريم

في العدد الماضي، تهيأت أسباب الحديث عن تجليات الجمالية السليمانية، من خلال مشهد قرآني يلتفت إلى جوانب من العمران الجمالي والوظيفي في عهد سليمان عليه السلام. وهي جوانب انخرط في رفع قواعدها نفر من الجن، بناء على رؤى تخطيطية وتوجيهات دقيقة من هذا النبي الكريم عليه السلام، تكشف عمق الرؤية الجمالية والإحساس الذوقي الذي حظي به النبي سليمان في بيت والده داوود عليه السلام. وذلك كله يؤكد قاعدة "إعمال الجمال أولى من إهماله"، التي نذهب إلى أنها من القواعد القرآنية في العمران الإنساني.

ونستأنف في هذا الجزء الثاني بقية المشاهد التي تجلي الحقيقة نفسها.

المشهد الثاني

ورد في القرآن الكريم مشهد دال ضمن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ بلقيس، يقع في خاتمة أحداث القصة؛ يقول عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(النمل:٤٤).

لقد أنشأ سليمان عليه السلام لبلقيس قصرًا ذا مواصفات جمالية بهيجة، وذلك من أجل استقبال هاته الملكة القادمة من فضاء الملك والثراء، والمتشبعة بثقافة الجمال والذوق الملوكي المدني. ونظرًا إلى مقصدية التأثير في نفسيتها ووجدانها، فقد حرص نبي الله سليمان عليه السلام على أن يكون القصر آية في الجمال، إيمانًا منه

إذا كان هنـاك طائر فكري يأخذ بيد الإنسـان، لكي يسـبح في السـماء الواسـعة التي لا نهاية لها، فهو الفن. وبفضل الفن يستطيع الإنسان أن يفتح أشرعته ليسبح في أجواء السموات والأرض، فيصل إلى مشاعر ورصد ما وراء الزمان والمكان.

بـأن الجمال مدخل من مداخـل الإيمان بالواحد الأحد، والابتعـاد عـن الشـرك. ولـم يـأت هذا الفهم منه عرضًا، وإنما هو ثمرة التنشئة الذوقية والجمالية التي رُبّي عليها في بيت النبوة والملك، تنشـئة لم تعرف التباعد والتباين بين القيم الجمالية والقيم الدينية، ولـم تُقِم حواجز نفسية بيـن التلقي الجمالـي والتربيـة القيميـة، ولـم يتسـلل إلى منظومتها عناصر التزهيد والتنفير والتحقير، فاسـتطاعت أن تجعل الجمال شعبة من شعب الإيمان.

فكانـت أرضيـة القصر مصنوعة مـن الزجاج، تجري الميـاه تحتـه. وقد قال بعض المفسـرين إن النهر بأسـفله يحتوي على الحيتان، وللمتأمل أن يتخيل جدران القصر وسقفه والعناصر المتضافرة في إحداث التمثل الجمالي المفضـي إلـى الاسـتجابة الإيمانيـة مـن نبـات وأزهـار وأشجار وعناصر إيقاعية مصاحبة.

ولذا، فبمجرد ما رأت بلقيس جمال القصر، وبعد أن استوعبت الصدمة القوية للتلقي الجمالي، أعلنت مباشرة تخليها عن العقيدة الشركية، وتفيؤ ظلال التوحيد.

ومـن المؤسـف أن الخطاب التفسـيري لـم يول هذه المعانـي مـا تسـتحق من عناية تأصيـلاً لمقصدية الجمال فـي القـرآن، ولـم يكلف نفسـه التسـاؤل عن أسـرار إيراد القـرآن لذلـك المشـهد، مـع أنه مشـهد قـد لا تتأثـر بنية القصـة ومعانيهـا بحذفه. وفي المقابل فقد اشـتغل بعض المفسـرين بمَرْويـات خرافيـة؛ من مثل أن سـليمان شـيد القصر بأرضيتـه الزجاجية، وبمواصفاته الموهمة بوجود المـاء علـى تلـك الأرضية، من أجل أن يصـل إلى الخبر اليقيـن فـي مـا يـروج حـول طبيعـة جسـم بلقيـس التـي اختارها زوجة له، لأن بعض الإشـاعات كانت تقول إن نصفها العلوي بشر ونصفها السفلي جني، فتأكد له -بعد دخـول بلقيـس القصر وكشـفها عن سـاقيها- أن سـاقيها سـاقا بشـر. وشـتان بيـن الأفـق الجمالـي الـذي رصـده القرآن في ذلك المشهد، وبين التوجيه التفسيري المتأثر بالمرويات الغريبة.

المشهد الثالث

وهـو مشـهد مـرور الخيـل علـى نبـي الله سـليمان عليه السلام واستغراقه في تأمل منظرها. يقول القرآن الكريم في هذا المشـهد: ﴿وَوَهَبْنَـا لِدَاوُودَ سُـلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۞ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِـيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۞ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۞ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾(ص:٣٠-٣٣)؛ وهو مشـهد يعكس الخلفية الجمالية لسـليمان عليه السلام، فهو يحـرص علـى أن يمـر بين يديه قطيـع الخيل كل عشـي، يتأملهـا ويستشـعر نعمـة الله عليـه من خـلال تمثل جمال هيئتها وشـكلها، إلى درجة أنه يكرر التجربة مثلما يكرر ذكـر الله المعادل اللسـاني للأوبة القلبيـة التي امتدحه الله بها: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

لكـن خطـاب المفسـرين كاد أن يغيـب هـذه الـروح، واسـتحضر بعض المفسـرين مَرْويـات لا يمكن أن يقبل السياق القرآني بها، من مثل ما يروون من أنه لشدة فتنته بمنظـر الخيـول -وهـي تعـرض بيـن يديـه- نسـي صـلاة العصـر، وعندمـا أدرك أنها فاتته، شـعر بالنـدم فانتقم من الخيـل التي كانت سـببًا في انشـغاله عـن أداء الصلاة في وقتها، واندفـع نحو قطـع أعناقها وسوقها بالسيف. وهذا المذهـب التفسـيري ينطلـق من ثنائية الجمـال والجلال، ويتوهـم إمكانيـة التعارض بينهمـا، ويزهد في كل جمال يمكن أن يؤدي إلى تعطيل التمثل الجلالي لرب الجمال.

ومن المؤسف القول إن هذا المذهب ما يزال يسيطر علـى بنيـة التفكير الإسـلامي فـي الجماليـات، ففي آخر كتـاب حـول "علـم الجمال: رؤية في التأسـيس القرآني" للدكتور عبد العظيم صغيري، نلحظ سيطرة هذه الرؤية، يقـول: "إن منظـر الخيـل -وهـي مهيـأة للاسـتعراض في أبهـى صـور وأجمـل منظـر يأخـذ بالألبـاب- ومشـهدها الجميـل يشـغل ويلهـي، لكن ليس إلى الحـد الذي يفتن صاحبـه عـن الواجب، إذ المتعـة المتحققة في مناجاة الله تعالـى، والقيـام بين يديـه بالواجب، أعظم وأجل من كل

المتع والملذات. لذلك، لما أحس نبي الله سليمان عليه السلام -وهو مأخوذ بجمال الخيل، مفتون بروعتها وتألقها- بخروج تجربته الجمالية هاته عن حدود قصد الشارع، آب إلى ربه عز وجل ورجع إليه تعالى، وغاب عن رؤية جمال الخيل في رؤية جمال محبوبه وربه"[1].

إن هذه الرؤية ثمرة تحكيم للمرويات في الموضوع، وهي مرويات يتوجه إليها العديد من الاستدراكات المفضية إلى تهوينها، مما يكر على ثمراتها بالضعف والتهوين.

فلم يثبت أولاً، أن الأقوام قبل الإسلام كانوا يعرفون صلاة باسم صلاة العصر، فضلاً أن يستصحبوا معهم أهميتها، وخطورة تأخير وقتها، وتمثل الوعيد الشديد لمن يتهاون في أدائها في وقتها. ثم هل يعقل أن يعمد سليمان عليه السلام إلى إتلاف ثروة حربية تقدر بأموال طائلة، لا لشيء إلا لأن تلك الثروة فتنته وشغلته عن الصلاة، وكيف يجوز لسليمان عليه السلام أن يفعل ذلك على مرأى ومسمع من مستشاريه وقواده وولاته، دون أن ينكروا عليه فعله، وهم يعلمون أن إتلاف تلك الثروة مضعف للأمة، وكاشف عن غياب الحكمة، لأن العاقل يدرك أن لا جريرة تلحق الخيل بسبب سلوك الإنسان؟

ثم إن تلك الرؤية ثمرة للنظر الأصولي الفقهي، الذي بعد تقسيمه لمقاصد الأحكام والسلوكات إلى ضرورات وحاجيات وتحسينيات، وجد نفسه مضطرًا إلى إدراج الجماليات ضمن التحسينيات التي لا تتضرر الحياة بفقدها، ولا يمس الناس حرجًا بفقدانها، بالتالي جعلها من المنافع غير الضرورية، يقول ابن عادل في تفسيره "اللباب في علوم الكتاب" وهو بصدد الحديث عن منافع الخيل والبغال في السياق القرآني: "ولما ذكر الأنعام، أتبعه بذكر المنافع المقصودة منها وهي إما ضرورية أو غير ضرورية. فبدأ بذكر المنافع الضرورية فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾. وأما المنافع غير الضرورية الحاصلة من الأنعام، فأمور، وعد منها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾(النحل:٦)[2]، وهذا يستدعي مراجعة دقيقة لمشمولات التحسينيات في التصنيف الأصولي المشهور، وإدراك أثر السياقات الثقافية والاجتماعية والحضارية للعصور، فقد يصبح ما هو تحسيني في مرحلة أو زمن أو بيئة، من الحاجيات أو الضرورات في مرحلة أو زمن أو بيئة أخرى. ومن ثم، فقد يكون مناسبًا في بيئات وثقافات القول: "على أنه إن أبحنا الغناء والموسيقى بالقيود التي أشرنا إليها، فإننا لا نرى المداومة على ذلك، بحيث يصبح السماع هو ديدن الإنسان وهجيراه، حتى تفسد طباعه إن أساء استعمال هذا الأمر، وإنما يكون سماعه للتخفيف عن نفسه ليثابر في عمله، ويعبر عن فرحه في المناسبات الشرعية"[3]. لكن هذا التقييد قد لا ينفع مع السياق الثقافي والفني العالمي في العصر الحديث، حيث دخلت الموسيقى في حياة الناس اليومية، وامتزجت بمناشطهم في التربية والرياضة والاستشفاء والإدارة ومرافق الترفيه وغيرها... ولم يعد يتصور معها أنها قد تلهي الناس عن أعمالهم، أو قد تفسد طباعهم وهي التي يراد منها أن تهذب الطباع مثلما هو مقرر في مناهج التربية والتعليم وعلم النفس.

إن مما يزيد الإشكال تعقيدًا، أن البحث الفقهي المعاصر في موضوع الفنون، لم يتجاوز الإطار النفسي والمنهجي للنظر الفقهي المواكب لأوضاع وأحوال ونفسيات ماضية، فجاء تحليله مستصحبًا للأفق الذي استقر عليه الفقه قديمًا من التشدد في حدود الإباحة، وربط الانفتاح على الفنون في حدود الترويح عن النفس المثابرة في الجد، والتحذير من إضاعة تلك الفنون لوقت المسلم، وكأن شأن الفنون ما يزال شأنًا خاصًا بالأفراد، وكأنه لم يتحول إلى بنية نفسية وسلوكية ضاغطة مهيمنة تصرف عليها ميزانيات، وتدخل في إستراتيجيات توجيه الذوق الفني والجمالي والقيمي للبشرية جمعاء.

مع العلم أن التخفيف والتعبير عن الفرحة أمران نسبيان يختلفان باختلاف الذوات، دون إغفال الإشارة إلى أن الاستماع إلى الموسيقى -مثلاً- صارت له عادات، فهو يأتي مصاحبًا لإنجاز الإنسان لمختلف أعماله، فلا يتصور في الاستماع إليها مضيعة لوقته، فهو يتاجر ويستمع إلى الموسيقى، ويراجع دروسه وهو يستمع إليها، وقس على ذلك بقية أنشطته العلمية والتربوية والرياضية وغيرها.

hiramagazine.com

لقد أنشأ سليمان ﷺ لبلقيس قصرًا ذا مواصفات جمالية بهيجة، وذلك من أجل استقبال هاته الملكة القادمة من فضاء الملك والثراء، والمتشبعة بثقافة الجمال والذوق الملوكي المدني. ونظرًا إلى مقصدية التأثير في نفسيتها ووجدانها، فقد حرص نبي الله سليمان ﷺ على أن يكون القصر آية في الجمال، إيمانًا منه بأن الجمال مدخل من مداخل الإيمان بالواحد الأحد.

حراء

فالربط الآلي بين الفنون وإضاعة الوقت ربط محتاج إلى استدراك؛ وجعل الفنون -في منظور الشريعة- مجرد استرواح وتخفيف وتعبير عن فرح في مناسبات شرعية، يحتاج إلى لائحة من الاستدراكات، لأنه ربط لا يعتد بالنصوص ومقاصدها، وإنما يعتد بأفهام بعض الفقهاء ومواقفهم، وطبائع الحياة في عصورهم، والسياق الثقافي والاجتماعي في أزمانهم.

إن الفقه المعاصر يستند إلى آراء القدماء في الموضوع، وهي آراء جاءت مطبوعة بالسياق الثقافي والاجتماعي لعصورهم، وهو سياق تحكمت فيه انطباعات لعل أقواها اعتبار الفنون والجماليات شأنًا فرديًّا ونخبويًّا؛ فما زال العديد من علماء الأمة وفقهائها، يتعاملون مع موضوع الفنون والجماليات باعتبارها قضية جزئية تتصل بآحاد الناس، وما زالوا ينظرون إليها وكأنها سلوك يمكن أن يأتيه الإنسان نادرًا أو لمامًا. وقد يتعاملون معه وكأنه مما يتعرض للإنسان مرة أو مرتين في حياته الخاصة أو العامة، وقد لا يلتفتون إلى أن الفنون والجماليات صارت سمة العصر ولغته وأسلوبه وأبرز مظهر في الحياة الخاصة والعامة للناس على مختلف طوائفهم وانتماءاتهم. يقول الدكتور محمد عمارة: "فلم تعد الفنون ترفًا إنسانيًّا ولا امتيازًا لشريحة من المترفين المتعطلين -كما كانت لدى البعض في فترات التاريخ- وإنما هي اليوم مكون رئيسي من مكونات الذاتية الإنسانية السوية، وأداة فاعلة في تحصيل العلم وحفظ المعلومات (...) وإنها واحدة من ضرورات الوجود والارتقاء بالنسبة للإنسان"[٤]، بل صارت مشكلة لرؤى الناس وعواطفهم وأذواقهم.

الجمالية السليمانية بين التوجيه التفسيري الفقهي والكليات القرآنية

إن الهدف من إيراد الآيات والمشاهد المرتبطة بالجمالية السليمانية، يكمن في إبراز الرؤية الجمالية في القرآن الكريم. وإذا ظهر تعارض بين هذا التحليل وبين ما يذهب إليه بعض المفسرين، فإن الاحتكام يكون للكليات القرآنية، وهذا ما يسوغ المقدمات الموجودة في هذا العرض. فهي تُبرز احتفاء القرآن بالجمال في أبعاده المختلفة، وإن كان لنا من خاتمة نمسك بها عن الكلام -المباح أو غير المباح لست أدري- فإننا نستدعي من الخطاب القرآني الجميل موقفين يؤكدان كليته المحتفية بالجمال والجماليات:

الموقف الأول: اعتبار الجمال آية، وهذا واضح في قوله تعالى واصفًا حدائق مملكة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(سبأ:١٥)، فهنا يتحول الجمال -وتخطيط الحدائق يقع في صلب الجماليات فنًا ومعمارًا وزينة- إلى آية تستدعي الشكر. ولعل القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي طبع علاقة الإنسان بالجمال، ورفع قدره إلى أن جعله آية، فانعكس ذلك في تخطيط الحدائق والبساتين بالمدينة الإسلامية، واحترام البيئة وإيجاد الفضاءات الجمالية في المجال العام.

الموقف الثاني: نقيض الجمال قبح قد يصل إلى حد العقوبة. ويعرض القرآن الكريم لنموذج حي يبرز كيف أن أكبر عقاب للجاحدين والمعرضين عن الإيمان، يتمثل في أن يزيل نعمة الجمال من محيطهم ما دامت أجهزة الاستقبال الجمالي المفضي إلى الاستجابة الجلالية قد تعطلت بداخلهم، يقول ﷻ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(سبأ:١٦).

ومن عجائب الأسلوب القرآني، أن الألفاظ -في هذا السياق- تأتي مساوقة للجو العام، فهي ألفاظ ثقيلة في أصواتها، غريبة وحشية في معانيها، توحي بالغلظة

hiramagazine.com

والخشونة والقبح، وليس فيها من جمالية سوى أنها انتظمت في الأسلوب القرآني، وفق مقصدية الاستهجان والتقبيح. فما معنى الخَمط؟ وما هي دلالة الأثل؟ وما قيمة هذا النفي في كلمة "سدر" التي لم يكتف بتنكيرها احتقارًا لها، بل حوصرت يمينًا بكلمة "شيء" التي تفيد -بتنكيرها ودلالتها على القلة- ضعف قيمتها، كما حوصرت شمالاً بكلمة "قليل" التي تفيد القلة التي تكاد تعني لا شيء؟

إن انتماء تلك المفردات إلى غريب اللغة ووحشيها، بالإضافة إلى معانيها الدالة على البشاعة (خمط)، والفاقد للثمر (أثل)، والسدر (شجر النبق)... ذلك كله يرسم صورة قبيحة تساوق صورة الذي أغفل عن تمثل الجمال وتذوقه والاستجابة إلى أنواره وصولاً إلى الإيمان بالله وشكره.

إن البحث التفسيري محتاج إلى جمع هذه الآيات وغيرها، في سلك تفسير موضوعي للجمال والجماليات في الخطاب القرآني، ثم دراستها دراسة تراعي مقاصد القرآن وصلوحيته في الزمان والمكان والأعراف والبيئات، وتستحضر القواعد الحاكمة للعمران الإنساني في الحياة، وتستثمر الكسب الإنساني المعاصر في قضية الفنون والجماليات، وتنزل مقتضيات ذلك تنزيلاً حكيمًا يحقق التوازن والتكامل بين مختلف مناشط الإنسان.

وهذا الاتجاه التفسيري المقترح، مطلوب منه أن يستند إلى نظرية يعمل على صياغتها روادٌ لا يستغرقهم التخصص الفقهي فيَنفرون ويُنفرون من الفنون والجماليات ويَزهدون ويُزهدون فيها، ولا يبتلعهم التخصص الفني فيستنكرون توجيه الدين للجمال والجماليات... روادٌ يصفهم سيد قطب في كلام جامع بأنهم: "أصحاب الطاقات الروحية الفائقة، الذين يحملون الشعلة المقدسة التي تنصهر في حرارتها كل ذرات المعارف، وينكشف في ضوئها طريق الرحلة مزود بكل هذه الجزئيات قوية بهذا الذات، وهي تغذي السير نحو الهدف السامي البعيد... الرواد الذين يدركون ببصيرتهم تلك الوحدة الشاملة، المتعددة المظاهر في العلم والفن والعقيدة والعمل، فلا يحقرون واحدًا منها، ولا يرفعونه فوق مستواه"[٥].

هذا الاتجاه محتاج إلى تأصيل العلاقة الحميمية بين الفن والجماليات والقيم الدينية، وفق منظور يعبر عنه الأستاذ محمد فتح الله كولن بقوله: "إذا كان هناك طائر فكري يأخذ بيد الإنسان، لكي يسبح في السماء الواسعة التي لا نهاية لها وفي أعماقها، وفي أجواء السموات الزرق؛ فهو الفن. وبفضل الفن يستطيع الإنسان أن يفتح أشرعته ليسبح في أجواء السموات والأرض، فيصل إلى مشاعر ورصد ما وراء الزمان والمكان"[٦]. وهو المنظور الذي يؤكد عليه كولن في نص آخر ورد فيه: "ألم يجعل الفن -وهو يرافق الإيمان- هذه الدنيا معرضًا للجمال بالمعابد الفخمة، وبالمنائر التي تشبه أصابع الشهادة المتوجهة إلى السماء، وبفن الحفر على أحجار المرمر، وبالألوان والتصاميم الجميلة، وفنون الخط والتذهيب والنقوش الجميلة جمال أجنحة الفراش؟"[٧].

وهذا الاتجاه التفسيري، حين ينجز هذه المهام العلمية التنموية، يكون قد اهتدى إلى قاعدة جوهرية من قواعد القرآن في العمران الإنساني، نلخصها في العبارة الآتية: "إعمال الجمال أولى من إهماله". ■

(*) المنسق العلمي لأكاديمية "مدارات" للاستشارات والتدريب / المغرب.

الهوامش

(١) علم الجمال: رؤية في التأسيس القرآني، للدكتور عبد العظيم صغيري، كتاب الأمة، قطر، ص:٩٨-٩٩.

(٢) اللباب في تفسير القرآن، لابن عادل الدمشقي، ج:١٠، ص:٨٠.

(٣) الغناء والموسيقى بين الإباحة والتحريم، للدكتور المكي اقلاينة، ص:٩٤.

(٤) الإسلام والفنون الجميلة، لمحمد عمارة، دار الشروق، بيروت، ط:٢، ٢٠٠٥، ص:١٤٨.

(٥) أفراح الروح، لسيد قطب، دار ابن حزم، بيروت، ط:١، ٢٠٠٣، ص:٢٢-٢٣. وهي الرسالة المطبوعة تحت عنوان "رسالة إلى أختي المسلمة"، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ص:٢٧-٢٨. مع التذكير بأن بعض الدارسين يشكك في كونها رسالة موجهة، وإنما هي نصوص جمعها بعضهم في شكل رسالة.

(٦) الموازين أو أضواء على الطريق، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ص:١٥٣.

(٧) المرجع نفسه، ص:١٥٣

hiramagazine.com

د. عبد المجيد بلعابد*

الرُّطَب

مضادًّا حيويًّا وميسّرًا للإنجاب

١ اسمي النخلة، من النباتات العريقة في القدم، والتي تكتسي اليوم أهمية اقتصادية كبرى؛ حيث أوفر العديد من المواد الأولية النافعة للإنسان من الناحية الغذائية أو الصناعية لما يستخرج مني من ألياف نسيجية. ومن أهم أنواعي؛ الفنقس أو نخل البلح. وبما أني أتمتع بمنفعة كبيرة، عرَفني العرب منذ القدم ولقَّبوني بـ"شجرة الحياة". يصل علوّي إلى ثلاثين مترًا، وأبلغ مرحلة النضج في الثانية عشرة من عمري لأنتج عنيبات تعرف بـ"التمر"، تكون متجمعة على شكل سنبلة، وتحتوي على ٧٠٪ من السكر. وأتكاثر عن طريق فسائل تخرج من قاعدتي المتصلة بالأرض. كما أتعاون مع الإنسان، خاصة عند تلقيحي الاصطناعي، حيث أنثر أزهار براعمي الذكرية على أزهاري الأنثوية. ويمكن في الظروف الملائمة أن أنتج كمية وافرة من التمر سنويًّا.

مراحل نموّي

الطلع: يعتبر الطلع أول ظهوري، ويبدأ بتلقيحي مباشرة بعد فترة قصيرة تمتد من أربعة إلى خمسة أسابيع.

الخلال: يعتبر الخلال، ثاني طور من نمو ثمرة تمري، وعند هذه المرحلة تبدأ ثمرتي بالاستطالة، ويصبح لونها أخضر، وتتصف بزيادة سريعة في الوزن والحجم.

البسر: يتصف طور البسر بالبطء في زيادة الوزن، ويتغير لون ثمرتي إلى اللون الأصفر أو الأحمر أو الأشقر، ومدته تتراوح بين ثلاثة وخمسة أسابيع.

الرطب: يبدأ الرطب في ذنب مرحلة البسر، ثم يعمها فتصبح ثمرتي رطبًا، وبالتالي تصبح مائية وحلوة، وتتراوح الفترة ما بين أسبوعين إلى أربعة أسابيع، وهو الطور النهائي لثمرتي.

قيمتي الغذائية

يحتوي تمري على قيمة غذائية عالية، ويعتبر قوتًا أساسيًّا للإنسان منذ القدم. وكذلك تعتبر ثمراتي أغنى الفواكه احتواء على السكريات، وقد تختلف هذه المكونات حسب طبيعة ثمرتي سواء كانت رطبة أم نصف جافة أو جافة، وحسب الظروف البيئية المحيطة بأشجاري. وقد تختلف مكونات ثماري باختلاف أصنافي، وتزيد نسبة السكريات داخل تمرتي على ٧٠-٧٨٪ من مكوناتي، حيث تتميز هذه السكريات بسرعة امتصاصها وانتقالها إلى الدم مباشرة وهضمها وحرقها. إن تناول ١٥ حبة يوميًّا من تمري (حوالي ١٠٠ جرامًا) يغني عن كامل الحاجة اليومية من المغنيسيوم والمنجنيز والنحاس والكبريت، ونصف الحاجة من الكالسيوم والبوتاسيوم.

القيمة الغذائية لعيّنة من رطبي

الكربوهيدرات	٧٥ غ
سكر	٦٣ غ
ألياف غذائية	٨ غ
الدهون	٠,٤ غ
بروتين دائب	٢٥٠ مغ/١٠٠ غ المادة الطرية
مياه	٧٣٪
بروتينات عامة	٥٥,٤ مغ/غ المادة الصلبة
فيتامين ج	١٪ ٠,٤ مغ
منغنيز	٠,٢٦٢ مغ
الفوسفاط	٢٥,١ مكرغ/غ المادة الصلبة

اختص الله ﷻ الرطب بفضائل كثيرة، حيث إنها مصدر خير وبركة. وأشارت الآيات القرآنية إلى منزلة الرطب في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(مريم:٢٥)، كما ورد في حديث مرفوع أن رسول الله ﷺ قال: "أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران " (رواه أبو نعيم). وقد جاء ذكر التمر في السنة النبوية؛ فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: "بيت ليس فيه تمر جياع أهله" (رواه البخاري). والاقتصار على الرطب عند الإفطار له فائدة طبية؛ وهي ورود الغذاء إلى المعدة بالتدرج حتى تتهيأ للطعام، فلا تجد الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء، والحلو أسرع شيء وصولاً إلى الكبد وأحبه إليه ولا سيما إن كان رطبًا فيشتد قبولها له.

والرطب سيد الفواكه، ومقوٍّ للكبد، مليّن للطبع، وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن، وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب، وإنه يحتوي على مضادات بكتيريا التعفن بعد الولادة. بالإضافة إلى أنه يتكون من مواد تمنع النزيف أثناء وعقب الولادة، كما أنه مخفض لضغط الدم عندما تتناولها الحوامل. إن رطبي وتمري فاكهة حلوة ممتازة غنية جدًّا بالمواد الغذائية الضرورية للإنسان، وإن ما أعطيه في الكيلو الواحد من البلح يعادل ثلاثة أضعاف ما يعطيه كيلو واحد من السمك.

ويحتوي رطبي على فيتامين (أ) بنسبة عالية تعادل زيت السمك والزبدة، وفيتامين (أ) -كما هو معروف- يساعد على زيادة وزن الأطفال، ولذلك يطلق عليه الأطباء اسم "عامل النمو"، وكذلك فيتامين (ب٢) لتقوية الأعصاب، وتليين الأوعية الدموية، وترطيب الأمعاء وحفظها من الالتهابات والضعف.

وهناك صفة نفسية مهمة لرطبي وتمري، وهي أنه يضفي السكينة والدعة على النفوس القلقة المضطربة. ويردّ الطب الحديث المزاج العصبي، إلى نشاط الغدة الدرقية الرابضة في مقدم العنق، وإلى ازدياد فرزها.

ورطبي -كذلك- غني بعدد من أنواع السكر؛

hiramagazine.com

كالجلوكوز، والليكوز، والسكروز، ونسبتها تبلغ حوالي ٧٠٪، ولذا فإنه وقود من الدرجة الأولى، لسرعة امتصاص سكري، إذ لا يحتاج إلى عمليات هضمية وعمليات كيماوية حيوية معقدة. أساهم في منح الحرارة والقدرة والنشاط، بل أنا مدرة للبول وغسل الكلي وتنظيف الكبد.

من منافع رطبي أيضًا؛ خفض نسبة الكولسترول بالدم، والوقاية من تصلب الشرايين، وذلك لاحتوائه على البكتين. ويمنع الإصابة بسرطان الأمعاء الغليظة، والوقاية من مرض البواسير، ويقلل تشكل الحصيات بالمرارة، ويسهل مراحل الحمل والولادة. وكما ينشط الوقاية من السموم لاحتوائه على الصوديوم والبوتاسيوم وفيتامين (ج). بالإضافة إلى إسهامه في علاج فقر الدم (الأنيميا) لاحتوائه على الحديد والنحاس وفيتامين (ب٢).

ومن منافعي -أنا النخلة- الأخيرة بعد بحوث قام بها الباحث عبد المجيد بلعابد من المغرب، وجود بعض المضادات الحيوية في رطبي؛ قامت التجربة على نساء تعرضن للتعفن البولي مباشرة بعد الحمل، حيث أُخذ منهن عينات من البول، وأجريت زراعة البكتيريا الموجودة بالبول وهي عبارة عن "Escherichia Coli" بوسط يحتوي على مكونات الرطب مقارنة مع آخر بدون هذه المكونات. والنتيجة أن مكونات الرطب، لها أثر إيجابي على وقف تكاثر هذه البكتيريا مع حماية المرأة النفساء من هذا التعفن السهل والمتكرر.

أثبتت الأبحاث الطبية الحديثة، أن تناول الرطب أثناء المخاض له فوائد كثيرة، وذلك لاحتوائه على مادة مشابهة للأوكسيتوسين الذي يقوم بدور المحرض للمخاض ويساعد على الولادة. إن مادة الأوكسيتوسين تساعد على تنظيم تقلصات الرحم أثناء الولادة، وانقباض الرحم بعد الولادة، وتمنع تعرض المريضة لحمى النفاس، لأن الرحم الذي لا ينقبض جيدًا بعد الولادة، يكون أكثر عرضة لهجوم الجراثيم، مما يسبب الإنتان النفاسي. ■

(*) جامعة محمد الأول، كلية العلوم، وجدة / المغرب.

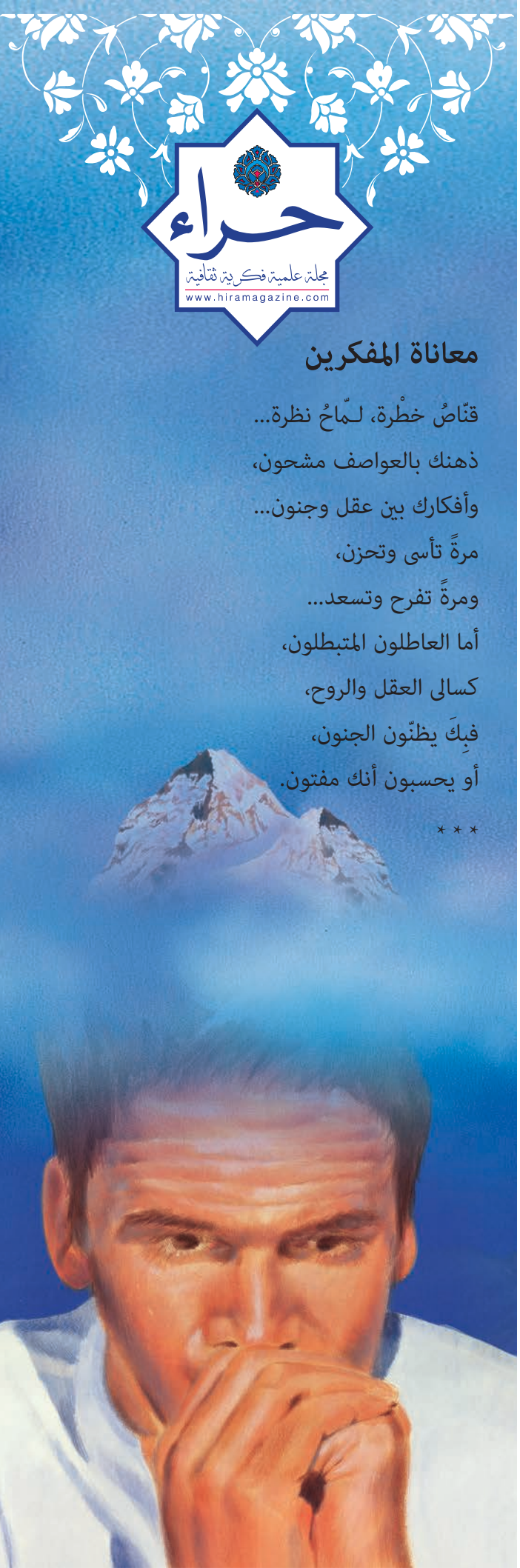

د. محمد خروبات*

مشروع الخدمة المبادئ والمجالات

نحاول في هذا المقال أن نستكمل ما كنا بدأناه في مقال سابق نشر في العدد ٤٢ على صفحات مجلة حراء الغراء، مقال يأتي على ما تبقى من الكلام عن "مشروع الخدمة من عين الواقع"، لكن هذه المرة من حيث المبادئ والمجالات. سنمهد للكلام بالحديث عن الواقعية والتعدد، وعن طموح الأستاذ محمد فتح الله كولن. نتكلم في المبادئ عن العمل أولاً، وعن الوقف الذي هو شريان الحياة في المشروع. أما المجالات فسنشير فيها إلى الأسرة والخدمة، نتناولهما من منظور مغاير عن النظرة السابقة، لأنهما يهمّان مجالاً حيًّا في المشروع وهو "إنسان الأسرة"، وإلى الإعلام والعمل الإذاعي والصحفي الذي يشكل لسان جسد المشروع، وإلى الاقتصاد المتمثل في التجارة والشركات التجارية والأبناك... وهي كلها مبادئ أساسية في مشروع الخدمة، ثم التجارة، والأبناك، ورجال الأعمال، والكل له صلة

بالمال الذي هو عصب حياة المشروع.

ولقد آثرت ألاّ أوغل في التراث لتأصيل هذه العناصر أكثر من اللازم، وألاّ ندخل في شيء من النقد والرد، كما آثرت ألاّ نسقط على الموضوع آليات البحث العلمي وطرائق التحليل الأكاديمي. لقد أردته أن يكون موضوعًا خفيفًا لطيفًا يرصد التجربة من عين الواقع، يتأملها في ضوء المعطيات العيانية، ثم يعيد صياغتها بالفكرة التي تصلح والعبارة التي تليق، لا مكان للعاطفة الجياشة، ولا للمعالجة العقلانية الجافة، ولا للتحليل النظري المعلق.

الواقعية والواحد المتعدد

مشروع الخدمة من حيث مكوناته وأساليبه، هو ذاتي التكوين، لم يَستعر هذا المشروع تنظيمه وأساليبه وهيكلته من غيره، لكنه في عمومه استوحى التجربة من التراث الإسلامي، نعني بذلك التوجيهات النبوية وآراء السلف الصالح، ثم معطيات الواقع الذي لا يرتفع. إن السر في نجاح المشروع يكمن في الاستلهام من التراث، ومن توظيف الطاقة والقدرات. ولو كان مقتبسًا من غيره لكان نصيبه الفشل، والتجربة لا تكون ناجحة إلا في واقعها وبواقعها.

يجب الإشارة إلى نقطة مهمة جدًّا قلما ينتبه إليها الباحثون في فكر الأستاذ محمد فتح الله؛ ذلك أن مجمل الأعمال الفكرية والثقافية التي أنجزها إنما هي نتيجة الاستفادة من التاريخ، ونعني بـ"التاريخ" دراسة أسباب سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا. لقد استفاد الأستاذ من أسباب السقوط، ومن موقع السقوط، بحث في أسباب النهوظ وهو المتمثل في الخدمة باختصار.

إن الواقعية التي نتكلم عليها هنا، هي واقعية الفكر، وواقعية التصور، وواقعية التجربة، وواقعية الفهم والعلم، وواقعية الحركية والتفاعل... الواقعية هنا متعددة الأبعاد، ويحلو لي أن أصف الأستاذ محمد فتح الله بـ"الرجل المتعدد". إذ لو لم يكن التعدد موجودًا لما امتد منه هذا التعدد، تعدد ملموس في داخل تركيا وفي خارجها، لو لم يكن التعدد موجودًا، لما تمكنت آراء وأفكار وتصورات ومذاهب وملل ونحل وفلسفات من التوحد حول طاولة الأستاذ، وهي تجربةٌ أساسُ نجاحها هو الطموح، وهي النقطة التي سنتولى الإشارة إليها في المعالجة الآتية.

إذا جاز لي أن أصف الإنتاج العلمي والتربوي للأستاذ محمد فتح الله كولن، فإنني أقول إنه بمثابة صيدلية عامرة تحوي عقاقير متنوعة ومتعددة، كل واقع يستلهم منها ما يراه مناسبًا لدائه. الداء واحد لكن لا أحد ينكر أن مضمونه مختلف، لذلك جعل لكل واحد جرعته، سواء أكان هذا الواحد رجلاً أم امرأة، شابًّا أم كهلاً، مجتمعًا أم دولة، مسلمًا أم غير مسلم... ومنبع هذا التعدد، هو التمكن من فهم الواقع أولاً، ومن ملامسة مشاكله. فالناجحون في الدعوة هم المتحكمون في فهم الواقع وفهم مشاكله بغية معالجتها. العشرات من الدعاة اليوم، يملأون الشاشات يوجهون ويعظون ويرشدون؛ وها هي خطبة الجمعة -مثلاً- تقام في بقاع العالم الإسلامي، ويحضرها جمع غفير من المصلين، لكن الخطباء ما استطاعوا -في بعض البلاد الإسلامية- أن يزيلوا من الناس ظاهرة واحدة من الظواهر المذمومة وما أكثرها، والأغرب أنها في توالد وتكاثر.

لقد سعى الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى إنتاج الخير وزرعه ليكون في كل مكان حتى يعمّ، وإذا عمّ المكان امتد في الزمان ليكون المستفيد الأول منه هو الإنسان.

طموح محمد فتح الله كولن

لا يمكن للأستاذ محمد فتح الله كولن، أن يتخلى على خصوصيته كطفل نشأ في بيت محافظ، بيتٍ تربى فيه على القيم المعنوية والأخلاق المثالية، ونشأ في جو التعليم التقليدي الكلاسيكي في الكتاتيب والمدارس الدينية التي أنهى بها دراسته، وهي معاهد ومدارس لم تكن في المستوى المطلوب في ذلك الوقت. لكن الطموح والتميز كانا في أعماق هذا الطفل الذي كلما كبر ونما، نما معه طموحه. كلما نما الإنسان الطموح نموًّا مثاليًّا، نما معه طموحه، وكلما انحرف، انحرف نمو الطموح. لكن نمو الطفل محمد فتح الله كان مطردًا، ليستقر به الحال في مهمة الدعاة والمربين الأخيار. لقد

hiramagazine.com

سخّره الله تعالى لشحذ الهمم، وصقل الأرواح، وتنمية المدارك، وإذكاء العقول... وها هو بطموحه الفياض، يتمكن من زرع الطموح ومن تنمية الطموح؛ وهو طموح يتقد بالمشاكل، وينتعش بالقلاقل، وينمو في ظل الاختلافات والفتن.

مبادئ الخدمة

١–العمل: العمل من حيث من يقوم به على نوعين: عمل فردي وعمل جماعي. العمل الفردي عمل ضعيف، لا يصمد ولا يؤثر لا سيما في هذا العصر. وفكر الأستاذ كولن هو فكر لأجل العمل، وكلام لأجل الممارسة. فكل ما صدر عنه له صلة بالعمل ولا شيء غير العمل. ولعل السر، يكمن في عنصر الإخلاص. البنايات ليست هي كل شيء، ففي العالم بنايات ومرافق ووزارات وكليات... إذا غاب منها الإخلاص، كانت ركامًا من الإسمنت الصلب كصلابة القلوب التي تديرها. ولقد أفلست الحضارة، حين غاب منها الإخلاص، لأنه إذا غاب الإخلاص حصل الإفلاس.

٢–الوقف: تعول الخدمة في جانب كبير منها على الوقف؛ فالوقف هنا، ليس كلامًا يردد في هذا الحديث أو ذاك، أو شعارًا يرفع من موقع مآزق الإيمان الصعبة، بل هو تربية وخلق وسلوك يتسم بالمنافسة المشروعة وبنكران الذات. نرى العمل ولا ندري كيف تم، تراه ماثلاً أمامك ولا تدري متى أُنجز، تعاين المنجزات قائمة شاهقة أبراجُها في السماء تنعكس على الإنسان والحضارة والعمران دون أن يذكر أصحابها.. منجزات أوقفوها في سبيل الله صدقة جارية وتواروا خلف الجدران، ومنهم من توارى خلف التراب، تاركًا ما أوقف أمانة في أعناق الخدمة. وقد امتد هذا الوقف خارج تركيا، لقد استطاع الوقف أن يتعدى عتبة الحدود والقيود إلى ساحة العالم الإنساني كله... إنها الخدمة التي تسير من دون مواثيق ولا معاهدات، ولا دفاتر يتباهى بها، ولا سجلات تُحرِج أحدًا، ولا قانون ملزم داخلي أو خارجي ملزم، ولا يُفعَل من هذا كله إلا ما اقتضته ضرورة التسيير الإداري، وإلا فمجال الخدمة مفتوح.

٣–التربية والأخلاق: حرص الأستاذ محمد فتح

إن الإنتاج العلمي والتربوي عند الأستاذ فتح الله كولن، بمثابة صيدلية عامرة تحوي عقاقير متنوعة ومتعددة، كل واقع يستلهم منها ما يراه مناسبًا لدائه. الداء واحد لكن لا أحد ينكر أن مضمونه مختلف، لذلك جعل لكل واحد جرعته.

حراء

الله كولن على التربية؛ تربية الجيل الذي أطلق عليه نعت "الجيل الذهبي"، الجيل الذي تربى على الخدمة. لكن الخدمة هي في حاجة إلى خدمة، وخدمة الخدمة هي التربية الإسلامية في صفائها ونقائها، وفي إطارها العلمي والمعرفي. لقد أدرك الأستاذ أنه لا خدمة من دون تربية، تربية كان يبدأ فيها دائمًا من نفسه، ثم يمتد لينشئ الجيل الذهبي، ومعناه الجيل الغالي والنفيس لأنه أغلى ما هو موجود في المجتمع، جيل أُعيد إليه الوعي بدينه وحضارته وقيمه، جيل ساهم هو بدوره في إعادة الوعي للشعب التركي، هذا الشعب الذي طُمست هويته ردحًا من الزمن.

إلى جانب عنصر التربية هناك عنصر "الأخلاق" أيضًا، الأخلاق التي حولها الأستاذ من أخلاق فردية إلى أخلاق اجتماعية، ومن أخلاق خاصة بالذات إلى أخلاق متعدية إلى الغير. ويمكن القول بأن الأستاذ سخّر مجمل النظريات والأفكار والآراء الخلقية في سبيل الخدمة. ولا خير في أخلاق لا تؤدي وظيفة الخدمة أو تعين عليها، إنها الأخلاق العملية المتمثلة في التعاون والتكافل والتآزر والتآخي... فلا يكون الفرد متخلقًا في عرف الخدمة إلا إذا كان عونًا لغيره. تلك هي" الأخلاق العملية" التي من خصائصها الوسطية والاعتدال، وهما خاصيتان أساسيتان في الأخلاق الإسلامية، فبقدر ما نتكلم عليهما نظريًّا بقدر ما يجب أن نتعامل بهما واقعيًّا، فالرجل الصالح يُكون الإنسان الصالح، والرجل الصالح يُؤلف الكتاب الصالح، والشركة الصالحة تُسهم في نشر الإنتاج الصالح، والإذاعة الصالحة تبث الأخبار الصحيحة والسليمة والصالحة... فالإنسان الصالح –في بداية المطاف ونهايته– هو ثمرة غالية، وهو ما تحاول الخدمة أن توجده وتُكوّنه.

hiramagazine.com

هـذا الالتفاف العجيب حول شـخص الأسـتاذ كولن هـو سـر نجـاح الخدمـة، وهـو التفـاف يعكـس وحـدة المرجعيـة ووحـدة التصور ووحدة الفكـر ووحدة التربية والأخـلاق ووحـدة العمـل والممارسـة... وهـي وحـدة ضمنـت للخدمـة وحدة الهدف والقصـد؛ الكل عرف ما قصد، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد.

٤–الحوار: نعـاود الـكلام عـن الحـوار مـرة أخـرى لأهميتـه، فالحـوار ليـس رهينـا بفتـرة زمنيـة محـددة أو بحالة معينة، بل يسـري على الزمان والمكان والأحوال. وهـو خصيصـة ثقافيـة في عـرف الخدمة، لذلك حسـبناه مـن المرتكـزات. لقـد أنبئنا بأن الحوار –على مسـتويات متعـددة– بـدأ بيـن الأيديولوجيـات، ثـم بيـن الأقليـات، ثـم بيـن الحضـارات والثقافـات، فتطـور إلـى الأديـان والمعتقـدات. لقـد زار ممثـل الفاتـكان الأسـتاذ وحاوره وتكلم معه، ورتب له زيارة إلى البابا بإيطاليا. ويذكرون أن ممثـل البابـا لفـظ أنفاسـه فـي مستشـفى "سـماء" وهو المستشفى الذي كان يتعافى فيه الدكتور فريد الأنصاري رحمـه الله، وهـو مـن مؤسسـات الخدمـة. ويذكـرون أن الممثل ربما مات على دين الإسلام، لأنه همس في أذن الأسـتاذ بشـهادة التوحيـد، وكان قـد أصيب بحادثة سـير فـي إيطاليـا طلـب علـى إثرها الانتقـال إلى تركيـا، وكان مـن وصيته أن يغسـل ويكفن ويدفن على طريقة إخوانه المسلمين هنا في تركيا، وكذلك كان.

لـم يكـن إخـوة الخدمـة يحتكـرون الحوار مـن دون الملل والمذاهب والنحل، بل كان للنصارى –مثلاً– قاعة للحـوار، لكنهـا كانـت شـكلية لم يجن منها المسـيحيون غير الخسارة. أما إخوة الخدمة، فقد كان الحوار عندهم متميزًا جدًّا؛ فقد كانوا يربحون في كل مرة، وأقوى ربح هـو أنهـم ربحـوا النصـارى أنفسـهم حيـث بـدأ أبناؤهـم يتوافـدون علـى مـدارس الخدمـة، ثـم إنهـم ربحـوا فئـة مـن الشـعب التركي وهي فئـة الأغنياء والأثريـاء، هؤلاء كانت أصولهم إسلامية لكن تدينهم كان ضعيفًا جدًّا، لا يعرفون معنى الشهادة ولا القبلة ولا الإيمان، ومنهم من ينزعـج من الأذان وإقامة الصلاة ويهاب الشعائر، هؤلاء هم الذين يطلق عليهم "الأتراك البيض"، وكانوا من حكام تركيـا، وجلّهـم تربوا فـي المدارس الأجنبيـة. هؤلاء هم الجيـل الضائـع، وهـم الفئة المعادية وقد تملكهم الغرور حتى أصبحوا يحسبون أنفسهم بأنهم فوق الناس، لأنهم –حسـب ظنهـم– يمثلـون الإنسـان الأناضولـي الممتاز، لكنهم بفعل الحوار الهادئ والمنهجي تغيروا كثيرًا.

لقـد كان إخـوة الخدمـة، يربطـون الجسـور مـع كل الطوائـف والفئـات والاتجاهـات فـي تركيـا؛ علوييـن، أتراكًا بيضًا، علمانيين، اشتراكيين، شيوعيين... واستطاع الجميـع أن يتمثـل على الأقل أهميـة الحوار وضرورته، ومـن هنـا لم يعد أحد يقف ضـد الحوار. فكان هذا أكبر مكسب في تجربة الخدمة.

اسـتطاعت التجربـة أن تقلب الموازيـن وتغير الكثير مـن المفاهيـم المغلوطـة؛ فمن الأفـكار الرائجـة –مثلاً– فـي تركيـا، أن كل مسـلم هو متخلف ورجعـي وأصولي ووثوقي، يميـل إلـى العيش في غياهب الماضي فينسـى الحاضر والمسـتقبل. لكـن المروّجين لمثل هذه الأفكار تفاجأوا، لأنهم وجدوا أمامهم جيلاً –من أبناء الخدمة– مـن الفئـة المتحضـرة والمتمدنـة، جيـلاً إنسـانيًّا متخلقًـا وتواصليًّـا بامتيـاز، جيـلاً وهـب نفسـه لخدمة الإنسـانية، وتطوَّر النعت القدحي من الرجعية إلى المحافظة، وبدأوا يرسـلون أولادهم إلى معاهـد ومدارس الخدمة، ووقفوا علـى تخلّفهـم وعلـى قصـور نظرتهـم، وبـدأوا يدركـون –على مر الوقت– أن الإسلام ليس كما يتصورون.

مجالات الخدمة

أ–الأسـرة والخدمـة: حيـن تصبـح العلاقـات العائليـة والأسـرية كلهـا فـي "خدمـة" الخدمة، حيـن يصبح أفراد الأسـرة كلهـم أطرافًـا فـي الخدمـة، تتحـول الخدمة إلى "عائلـة كبيـرة". فأولاد الفرد من الخدمة هم أولاد الناس كلهـم، وأولاد النـاس كلهـم هم أولاد كل فـرد من أفراد المجموعة. كل النساء أخوات هنا، الكل في خدمة الكل. هنا تذوب الأسرة الصغيرة في إطار الأسرة الأكبر، وهي مقدمـة نحـو أن يصبح المجتمـع كله كالأسـرة الواحدة. ولذلـك فـإن أبنـاء الخدمـة، لا يتضايقـون مـن مسـاعي الحكومة التركية في الانضمام إلى الاتحاد الأوربي؛ ذلك أن كل مـا هـو اتحـاد، تحب الخدمـة أن تكون فيه. وهذا من شأنه أن يحقق للاتحاد الأوربي نفسه، مزايا كبيرة ما

hiramagazine.com

دام من مستلزمات السياسة الأوربية التركيز على الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي أمور تحققت في برنامج الخدمة عمليًّا. لن تكون هذه الخدمة شكلية أو تجنى من ورائها مصالح مادية أو مكاسب سياسية، بل هي تتماشى مع المتطلبات الحقيقية للمصالح الأوروبية المتمثلة في الصناعة والتعليم والتجارة، وهي أمور قطعت فيها الخدمة شوطًا بعيدًا .

إن أوربا شاخت، وأصبحت في طريق أن ينطبق عليها ما كان ينطبق على الإمبراطورية العثمانية في عهودها المتأخرة حين نعتوها بـ"الرجل المريض". والنعت التي ينطبق عليها حاليًّا هي أنها "قارة عجوز". فهي بحاجة إلى أجيال فتية، وهذه الأجيال لا توجد سوى في تركيا من ناحيتين: من حيث الموقع، ومن حيث المصالح المشتركة. فلا مناص لأوروبا من التكامل مع تركيا، ثم هناك ناحية أخرى، وهي أن أوروبا تتواجد بها أجيال من تركيا معروفين بالعمل والجد والاجتهاد، برهنوا من خلالها على كفاءاتهم وإخلاصهم. لهذا السبب، سعى إخوة الخدمة إلى تهيئة أنفسهم للاندماج في المجتمع الأوروبي وخدمته، بالطرق التي يسعى لتحقيقها وهي بناء الإنسان مع غرس المقومات والمبادئ.

ب–الإعلام: لست بحاجة هنا إلى سرد مجمل إنجازات الخدمة في مجال الإعلام الذي تعددت واجهاته: الإذاعات، والقنوات، والمجلات، والصحف... فهذا شيء كثير –ولله الحمد– لكن يكفي أن نذكر من هذا الإنجاز، جريدة "زمان" التي لا تقف أمامها أية جريدة. كما قمنا بزيارة مقر الإذاعة بتاريخ ٢٠١٣/٠١/٢٩ التي قدم إلينا مديرها شروحات مستفيضة عن توظيف القضايا الدينية والعقدية يطول بي المقال في بسطها وشرحها.

إن أكبر نجاح حققه إعلام الخدمة، هو أنه تصدى للإعلام الكاذب ففضح أساليبه وخططه. وتَحقَّق من هذه العملية أن الإعلام المضاد خفف من حدة التمويه والزيف والتضليل، ورام إلى الصدق خوفًا من المنافسة والإقصاء. لم يفعل هذا وعيًا منه بمسؤولية الكلمة، بل كان دافعًا من فعل الخوف من إعلام الخدمة.

إن فكر الأستاذ كولن هو فكر لأجل العمل، وكلام لأجل الممارسة، فكل ما صدر عنه له صلة بالعمل. ولعل السر يكمن في عنصر الإخلاص. البنايات ليست هي كل شيء، إذا غاب منها الإخلاص، كانت ركامًا من الإسمنت الصلب كصلابة القلوب التي تديرها.

حراء

الاقتصاد

١–التجارة: نعني بالتجارة؛ المعاملات التجارية، ورجال الأعمال، والشركات التجارية. والتجارة هي كل شيء لأن لها صلة بالمال، والمال عصب الحياة، وأحد الضرورات الخمسة التي جاءت به الشريعة الإسلامية. وهي –قبل هذا وبعده– سنّة فعلها النبي ﷺ؛ فقد كان تاجرًا، وأجداده تجارًا، وكذلك قبيلته التي ذكرها الله في محكم التنزيل، وتزوج من تاجرة، وبقي يشتغل بالتجارة حتى نزل عليه الوحي. وهذا يبين –أولاً– على أن الوحي نزل على تاجر، وتوسع في أوساط التجار، وهذا يبين –ثانيًا– على أن التجار هم عمدة المجتمع وأساسه. فقد ساهمت تجارة الصحابة ﷺ في تنمية المجتمع حتى إن الله تعالى ضرب بها الأمثال في القرآن الكريم. لكن المسلمين تقاعسوا في الاهتمام بـ"التجارة" ولم يعطوها حقها الذي تستحقه، فأُتُوا منها. ولكن أبناء الخدمة لم يُهملوا هذا المجال المهم؛ ففي سنة ٢٠٠٥ أقيم ملتقى عالمي ضمّ تجار الخدمة وتجارًا من خارج الخدمة، منذ ذلك الوقت، انعقد جسر الملتقى العالمي للتجارة، واستطاع تجار الخدمة أن يجمعوا حوالي ١٨٠ ألف تاجر من مختلف أنحاء العالم، كان الغرض منه تلافي الإفلاس التجاري، وحتى الذين أفلسوا، استفادوا من إفلاسهم فأخذوا الوقاية والعلاج في آن واحد.

كان وراء ذلك فئة من الشباب الذين وفرتهم الخدمة، والذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٦–٣٢ سنة، وضعوا لجانًا حسب الاهتمامات، ونظموا أنفسهم تنظيمًا محكمًا. وأطلقوا على منتداهم نعت "لونجا" وهو منتدى معروف في تركيا، يلتقون فيما بينهم فيتحاورون ويتشاورون ويتعاونون فيعقدون صفقات مع بعضهم. والهدف من هذه الملتقيات،

hiramagazine.com

هو الانفتاح على العالم الخارجي. وجرى الانفتاح مؤخرًا على القارة الإفريقية بصفتها قارة بكرًا كما يعتقدون. هؤلاء كلهم أعضاء في اتحاد "توسكون" الذي تطور إلى مؤسسة كبيرة، بحيث أصبحت أكبر التجمعات لتجار تركيا، كانت تضم في سنة ٢٠٠٥ حوالي ٦٠٠ جمعية، ولا ندري ربما زاد العدد الآن.

ومن المواصفات التي حددتها مؤسسة توسكون للتاجر: النظرة إلى الأفق لا إلى الثروة. الاهتمام بمن له رغبة في الحركة التجارية. الاهتمام بالتاجر الصغير ليصبح تاجرًا كبيرًا في المستقبل.

وفضلاً عما سبق، فإن الخدمة حريصة على توفير جو يليق بالتجار، لأن للتجار عالمهم الخاص بهم، فهم لا يجالسون العلماء والمثقفين، لأن للتجارة أسلوبها وثقافتها. ورجال التجارة يخافون على أموالهم، لأنهم لا يملكون شيئًا غير المال. فسر التجارة هو البحث عن الأسواق التي فيها الخصب، وهم دومًا يبحثون عن الربح. لكن التجارة هنا في تركيا -وفي تجارة الخدمة بالذات- الأمر يختلف؛ فهم يجلسون ويجالسون، ويأنسون ويستأنسون، ويأخذون ويعطون، فيتعاونون ويتساعدون... وهم جنود في الخدمة، والخدمة تعول عليهم كثيرًا. لذلك أضافت التنظيمات التجارية -المتحدَّث عن بعضها سابقًا- بعدًا آخر لمدى الوحدة والتوحد لأجل التعاون، وفتح آفاق التجارة والعمل بغية النماء والاستثمار. في هذا الاتحاد يلتقي الشباب بالشيوخ، فيستفيدون من تجربتهم، وينهلون من معين خبرتهم. وهل يستغن الشباب عن الشيوخ؟ اللهم كلا.

كان من أهداف الكليات والمعاهد المتخصصة في إدارة المال والأعمال على مختلف تسمياتها، أن تخرج منها أبناء التجار الذين يستوعبون تجارة آبائهم، ويحافظوا عليها، ويطورونها نحو الأجود والأفضل. وقد ضمنت الخدمة نوعًا من التواصل التجاري بين الشباب والشيوخ، والآباء والأبناء.. تواصل قائم على الاستمرارية والديمومة، وينبني على قيم وأخلاق التجارة. فالتجارة القائمة اليوم، تقوم على الغش والاختلاس والاحتكار واستنزاف الآخر، وهذا يؤدي في النهاية إلى الإفلاس. وإذا أفلست التجارة أفلس الاقتصاد، وإذا أفلس الاقتصاد أفلس المجتمع. ذلك ما تحاول تجارة الخدمة أن تتلافاه، ومصائب قوم عند قوم فوائد.

٢-الشركات التجارية والخدمة: كان للتجارة وللتنظيمات التجارية نصيب من التربية والتوجيه، ونصيب من الخدمة أيضًا، بل سخّرت كلها للخدمة. وقد أولى الأستاذ محمد فتح الله كولن للشركات التجارية قيمة كبيرة، وذلك لأهمية المال والاستثمار والأعمال في الحياة اليومية للإنسان بصفة عامة. وقضية التجارة والتجار هي قضية مهمة في تاريخ الحضارات الإنسانية منذ القدم. لماذا لا تعول الخدمة على التجارة والتجار، والحضارات الإنسانية إنما بدأت بالتجارة وازدهرت ونمت بها. وقد أدرك الأستاذ كولن -بتجربته وبثقافته الواسعة- أن للرحلات التجارية دورًا كبيرًا في استعمار الشعوب، وهو موضوع يطول بنا المقال في سرد تفاصيله، لكننا نقتبس جازمين أن كثيرًا من الشركات التجارية الغربية التي حطت في الشرق، كانت مؤسسات استعمارية، أما شركات الخدمة فهي شركات إنسانية، دعوية وتكافلية. فهي شركات -كما سماها أحد أبناء الخدمة الفاعلين- "شركات الفتح المبين".

٣-الأبناك: إلى جانب الجهود السابقة المباركة، تقف الأبناك ماثلة في مشروع الخدمة، من هذه البنوك -مثلاً- بنك "آسيا". ولا تُعرف قيمة مثل هذه البنوك إلا في شيوع الأزمات؛ في الوقت الذي تتضايق فيه بعض الأبناك وتفلس أخرى، تبقى هي صامدة حية تقدم خدمتها بكل ثقة. للأزمة مدلول قدحي الدلالة، لكنها حين تكشف الحق من الباطل، والزيف من المغشوش، تصبح الأزمة رحمة. لقد واصل بنك آسيا مشروعه حتى عقد مع البنك الدولي اتفاقيات صارمة، وهو بنك إسلامي، والصعوبات في طريق هذا النوع من الأبناك لا بد منها، لكن بنك آسيا كان يتكيف مع الوضع.

ذلك هو الاقتصاد في مشروع الخدمة بأبعاده الثلاثة، وتلك هي مبادئ المشروع ومجالاته الأساسية نبعت من موقع المعاينة والمشاهدة، وليس من سمع كمن رأى. ■

(*) أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بجامعة القاضي عياض في "مراكش" / المغرب.

أ.د. عرفان يلماز*

أُدلفْ إلى البيت الذي ترفرف فيه رايةُ المعرفة عاليًا، وادخل المعبدَ الذي يعطر أنفاسَ المتعبدين بأنفاس "الماوراء"، واختر المدرسة التي تملأ قلوب طلابها بالأمل والإيمان.. فيا ويلنا إذا ما جنحت هذه الأماكن عن أهدافها، فإنها تتحول إلى أوكار مملوءة بالمخاوف، ومصايد تصيد الإنسان لتمسخ إنسانيته، وتأكل إيمانه.

الموازين

الجـرادة
تحكي قصتها

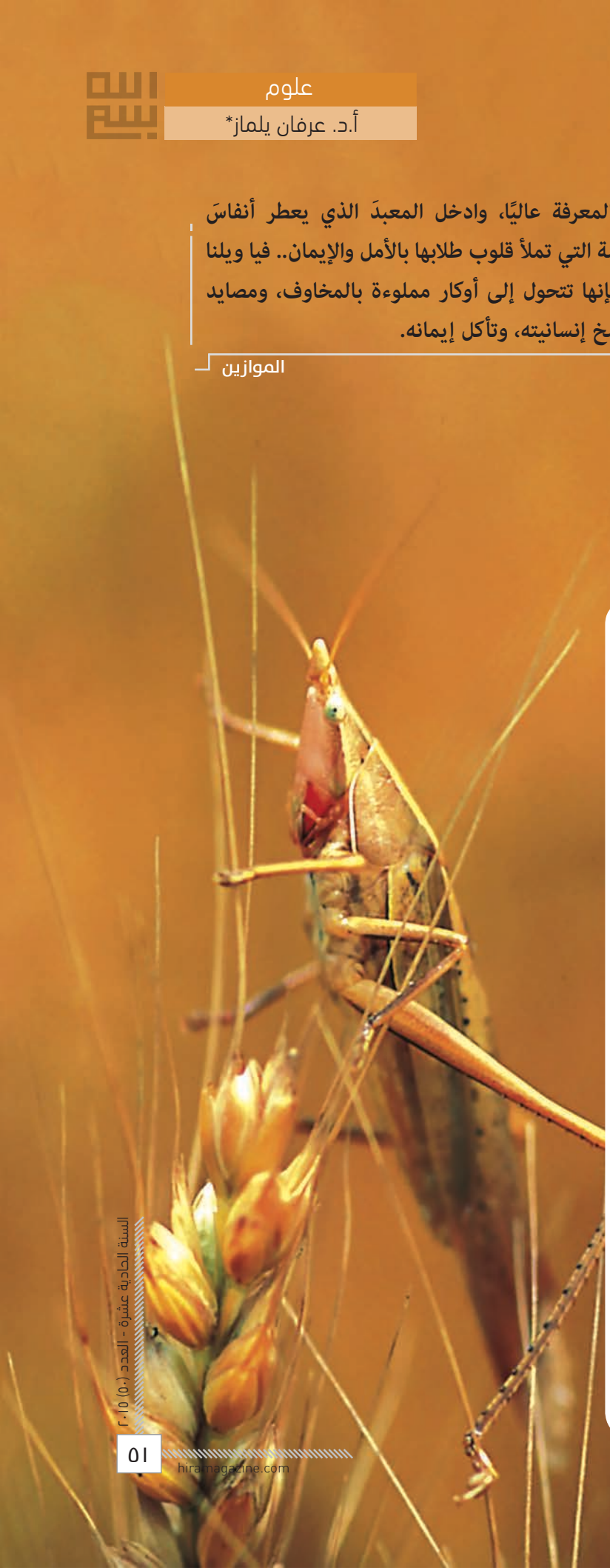

مرحبًا عزيزي الإنسان.. أنا الجرادة.. أخبرني أصدقائي أن دوري جاء للتحدث معك عن نفسي وللكشف لك عن عجائب خلقي.

لقد أوجد ربي الكون على نظام بديع لا نظير له ولا مثيل؛ وحمّل كل كائن من مخلوقاته وظيفة يؤديها أحسن الأداء. إذا ما ألقيتَ -عزيزي الإنسان- نظرة شاملة إلى عالم الحيوانات، ستلحظ أمرًا عجيبًا؛ وهو أن الله ذا الجلال الإكرام، وضع بين عدد أنواع الحيوانات وأحجامها تناسبًا تتحير له العقول. فمثلاً، عدد أنواع الحيوانات الصغيرة التي يكون حجمها ٠,٢٥ يبلغ ٢٠ ألف نوع، والتي يتراوح حجمها من ٠,٢٥ ميكرون إلى ٢,٥ ملليمتر فعدد أنواعها ٢٢٠ ألف نوع، وأما الحيوانات التي يتراوح حجمها من ٢,٥ ملليمتر إلى ٢٥ ملليمتر -وهي الحشرات التي تشكل أكبر مجموعة بين عالم الحيوان- فيصل عدد أنواعها إلى ٦٠٠ ألف حشرة. وبعد ذلك يبدأ عدد الأنواع يقل وفقًا للأحجام؛ فمثلاً، عدد أنواع الحيوانات التي يتراوح حجمها من ٢,٥ سنتيمترًا إلى ٢٥ سنتيمترًا يصل إلى نحو ٢٠ ألف نوع، والتي يتراوح حجمها من ٢٥ سنتيمترًا إلى ٢٥٠ سنتيمترًا فيبلغ عدد أنواعها ١,٥٠٠ نوعًا، أما الحيونات

التي يتجاوز حجمها ٢٥٠ سنتيمترًا فيكون عدد أنواعها ١٠ أنواع فقط. كما هو ملحوظ، فإن أكبر مجموعة بين هذه الأنواع، هي نحن الحشرات. والحكمة في ذلك أننا نُعتَبَر مصدر غذاء مهم لكثير من الحيوانات الأخرى.

إن جسمي مكسو بغلاف من الجلد المصنوع من مادة الكيتين، وهو غلاف صلب وخفيف أحمله بكل سهولة. وبالتالي يغنيني هذا الغلاف الصلب عن الحاجة إلى هيكل عظمي، أي لم يضع الخالق سبحانه في الحشرات هيكلاً عظميًّا مثل المخلوقات الأخرى، لأن غلاف الكيتين الصلب يقوم بدور الهيكل العظمي، ولكنه مرن للغاية.

أملك موهبة التحرك السريع، وذلك بفضل التقلّصات الناتجة عن عضلاتي الملتصقة بهذا الغلاف الصلب من الداخل. وبالتالي إني قادرة على حمل ٥٠ ضعف وزني. كما أن الغلاف المصنوع من مادة الكتين الصلبة والمرنة معًا، يساعد على تقليل شدة الصدمات التي أتعرض لها إلى أدنى حد. ويمتاز هذا الغطاء بمقاومته للمياه أيضًا؛ حيث يقوم مقام العازل الذي يمنع دخول الماء من الخارج إلى الداخل تارة، ويمنع فقدان الماء لجسمي تارة أخرى. كما لا يتأثر هذا الغلاف من حرارة الشمس العالية وكذلك من كل

أنواع الإشعاعات بسهولة.

ومن المواهب التي أنعمها الله عليّ، هي موهبة التمويه؛ حيث أقوم بتغيير لوني حسب المحيط الذي أتواجد فيه، وأحمي بذلك نفسي من المخاطر. أصارحكم القول بأنكم -يا بني آدم- إذا تمكّنتم من صناعة مادة تشبه مادة الكيتين التي تغطي جسمي، فلا جرم حينها من أن تحققوا نقلة نوعية في تكنولوجيا الطائرات والمركبات الفضائية.

يتكون جسمي من ثلاث أجزاء أساسية؛ الرأس، والصدر، والبطن. ويتحلّى كل جزء من هذه الأجزاء بأعضاء خاصة وتركيبة فنية بديعة. بالإضافة إلى وجود عينين واسعتين في رأسي تشبه خلايا العسل، فهناك أيضًا ثلاثة عيون صغيرة بسيطة التركيب؛ اثنتان منها تتموضع في جانبي الرأس وعين واحدة في وسطه. وبفضل هذه العيون الخمسة، أستطيع مشاهدة أمامي وخلفي في آن واحد. أما اللاقطات الموجودة أمام عينيّ الواسعتين، فلم تُخلَق من أجل النظر، بل إنها لاقطات خاصة لمعرفة الطعام الذي سأتناوله، وللإحساس بما يجري حولي من التحركات.

إن أجزاء فمي تتكون من آلات خاصة تعمل كالمطحنة. فهذه الأجزاء التي صمِّمتْ كالمنشار، والمقشرة، والمِبْرد، تقوم بتحطيم الغذاء من عشب وأوراق بالأحجام المطلوبة، بالإضافة إلى أن شفتي زُوِّدت بنظام لكمْش أجزاء النبات الصالح للأكل.

أما صدري يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء، يتصل بأسفل كل جزء رجلان، فيصبح المجموع ستة أرجل. وكذلك أملك أجنحة على اليمين وعلى الشمال تتصل بصدري. تبقى هذه الأجنحة مطوية أثناء الوقوف على الأرض، ولكن عندما أريد الطيران أفتحها وأحلق بها في السماء إلى مسافات شاسعة.

وأريد أن ألفت انتباهكم هنا إلى موضوع طيراني قليلاً؛ أكوّن مع المليارات من أشقائي الجرادات أسرابًا عملاقة تتألف من ١٠ مليارات جرادة، وبذلك نبدو وكأننا سُحُب سوداء تغطي بقعة واسعة من السماء. نهاجر بالأمر الإلهي، وعندما نحطّ في أرض، نأتي على

hiramagazine.com

الأخضر واليابس فيها ونحولها إلى منطقة جرداء يابسة.

طبعًا هذا الأمر يعدّ مصيبة بالنسبة لكم. لكن كل شيء يتم بمشيئة الله ﷻ. إننا نجتاز -بوحي إلهي- مسافة ٥ آلاف كيلومتر من شرق إفريقيا إلى غربها في أقل من شهرين. إن أحد أنواعنا المسمى بـ"الجراد الصحراوي" (Schistocerca Gregaria) نزل في كينيا -عام ١٩٥٤- على أرض تمتد مساحة ٢٠٠ كيلومترًا مربعًا، والتهَم الأخضر واليابس فيها حتى تحوّلت إلى منطقة جرداء لا زرع فيها ولا نبات. كما استولى نوعنا "جراد الجبل" (Male-noplus Spretus) في إحدى المرات، على أرض تمتد ٣٣٠ ألف كيلومترًا مربعًا من المساحة وجففها أيضًا.

يصل عددنا إلى أرقام قياسية في قزخستان، وروسيا، ودول أسيا الوسطى، والشرق الأوسط، وإفريقيا، لأن المناخ في هذه المناطق مثالي لنا بحرارته ورطوبته، فضلاً عن أن هذه المناطق مناسبة أيضًا لوضع بيوضنا وفراخنا. حيث أُدخل بطني في التربة (تمامًا مثلما تنثرون البذور)، وأضع بيوضي الشبيهة بحبة الأرز واحدة تلو الأخرى. عندما أضع البيضة تكون مغلفة بمادة مخاطية لزجة، مما يجعلها تغوص بسهولة نحو أعماق التربة، ثم تتصلب هذه المادة اللزجة لتتخذ شكل كيس قابل لحماية البيض. يضع بعض أنواعنا في الكيس الواحد ١٤-٥٦ بيضة، أما الجراد الحصراوي، والجراد الأحمر، التي تهاجر على شكل أسراب ضخمة، فيتراوح عدد بيوضها في الكيس الواحد من ٨٠ إلى ١٠٠ بيضة. ولكي لا تجف البيوض المحفوظة في الكيس وتتلف، وضع ذو الرحمة الواسعة لفوهة هذا الكيس نظامًا شبيهًا بسدّادة القنينة تمنع الجفاف، وكذلك تمنع دخول الرمل إلى داخل الكيس. وبعد مضي ١٠ أو ١٤ يومًا من الحضانة، تخرج الفراخ من بيوضها.

أما في المناطق الباردة، يستغرق خروج الفراخ من البيوض ٧٠ يومًا. والملفت للنظر أن الفراخ عندما تخرج من البيضة لا تشبه أمهاتها أبدًا، بل عند الكبر يتغير جلدها وتبدأ الشبه بالكبار. وأثناء تغيير آخر طبقتين من الجلد يكتمل نمو أجنحتها، وبعد تغيير الجلد تمامًا تكتمل الفراخ وتصبح أجنحتها قابلة للطيران.

تتألف حياتنا من مرحلتين؛ أما في المرحلة الأولى فأفضّل الهدوء والمعيشة المنفردة، أما في المرحلة الثانية فيقوم الجميع من الجراد بالبحث عن زوج له. وخلال هذه المرحلة، تتغير حركاتنا ويتغير لوننا وشكلنا، ثم ندخل مرحلة الإنجاب والتكاثر. إذ تضع الأنثى الواحدة منّا حوالي ٨٠ أو ١٠٠ بيضة على شكل كومتين أو ثلاث كومات، وبعد بضعة أسابيع يخرج من البيوض مجموعات هائلة من الفراخ، ولكن اجتماع هذا الكمّ الهائل يكون مرتبطًا بدرجة حرارة الجو في أغلب الأحيان.

هذا وإن لون صغارنا يتغير من الوردي إلى الأصفر، ثم تظهر خطوط سوداء على أجسامها قبل أن يكتمل نمو أجنحتها. والعجيب في الأمر، أن هذه الخطوط السوداء هي علامة مهمة لمعرفة جراد المجموعات بعضها بعضًا.

أتناول في اليوم الواحد ثمانية أضعاف وزني من النبات الأخضر. ولكن بعض أنواعنا تفضّل نباتًا معيّنًا لها للغذاء والقوت.

لقد تحدث القرآن الكريم عني مرّتين؛ فقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾، ولو أني لم أر ما نزل على بني إسرائيل من هذه المصائب، ولكني متأكدة أن أجدادي التهم الأخضر واليابس من محاصيلهم وتركهم في مجاعة فادحة. ثم في سورة القمر قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾؛ فعلاً هكذا؛ فنحن الجراد عندما نخرج من التراب أفراخًا، نتخبط خبط عشواء،

hiramagazine.com

ولا نعرف أين نذهب، وإلى أين نتجه، وكيف نتحرك.

الأبحاث العلمية التي قمتم بها حول حواسّنا، ما زالت ناقصة وغير كافية. إن حواسي حساسة للغاية؛ حيث أدرك حتى تيار الهواء الذي تقلّ سرعته عن ١٨٠ مترًا في الساعة، لذلك لا تستطيعون -أنتم البشر- الإمساك بي بسهولة.

لدينا نوع اسمه "جراد الشيطان" (Deinacrida) يملك قدرة فائقة في معرفة حالة الجو بحواسه من تحت التراب، ويقرر الخروج من جحره أو البقاء فيه وفق أحوال الجو. والأغرب من ذلك، أن هذا النوع من الجراد، رغم عدم وجود مادة مقاومة للتجمّد في دمه، يستطيع البقاء داخل الجليد مدة طويلة للغاية، بينما يوجد في معظم دم المخلوقات التي تعيش في المناطق الجليدية مادة مضادة للتجمّد. إلا أن خالقنا الذي أحسن كل شيء خلَقه، وضع فينا نظامًا مختلفًا عجيبًا لا نعرف كيف يمنع التجمد.

إن الأجنحة التي زيّنني بها ربي تحفة فنية بحق؛ فهي خُلقت بتناسق عجيب فيما بينها، حيث أرفرف بسرعة ١٢-١٥ مرة في الثانية. وأتمتع أيضًا بموهبة القفز، إذ أستطيع في القفزة الواحدة أن أتجاوز طولي مدى ٢٠ ضعفًا. وموهبتي هذه في القفز، تنتج بفضل ضخامة الفخذ لرجليّ الخلفيتين من جانب، ومن جانب آخر بفضل بروتين الريزيلين الموجود في مفاصلي. أجل، إن ربي الذي خلق بروتين الريزيلين، وضع فيه مادة مرنة للغاية تفوق مرونة المطاط العادي بكثير؛ إذ عندما يُضغط على بروتين الريزيلين بواسطة انطواء وامتطاط الرجلين، يتم تخزين ٩٦٪ من الطاقة، وعندما تُفرَّغ القوة الضاغطة على بروتين الريزيلين، تندفع الطاقة المخزَّنة بقوة هائلة وأقفز إلى الأعالي بسرعة منقطعة النظير.

حاولت في هذه السطور القصيرة أن أشرح لك -أيها الإنسان- بعض الخصائص التي خُلِقتُ عليها، ولو سمحتْ لي هذه الصفحات بالتعمّق في التفاصيل عن أعضائي الأخرى لفعلتُ ذلك، ولكن إلى وقت آخر إن شاء الله. المهم هو أن تعرف -عزيز الإنسان- أنني مثل الحيوانات الأخرى التي تجلّتْ قدرة الله في أجسامها. وإذا كنتُ قد وُفِّقتُ إلى نقل بعض هذه التجليات، سأعتبر نفسي من المحظوظين. وأطلب منك السماح -عزيز الإنسان- أن لا تؤاخذني إن قصّرتُ في الكلام. اعتنِ بنفسك جيدًا، وأنصحك أن تحبّ كل مخلوق في الكون من أجل الخالق لكي تفوز بحبه ورضاه ﷻ. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiramagazine.com

د. عبد الإله بن مصباح*

القرآن والكشوف العلمية
أية علاقة؟

"لقد قال عالم العصر (ألبرت أنشتاين) للماديين القصيري النظر، الذين حاولوا تأليه العلم في بداية عصرنا الحالي: "العلم دون دين أعمى، والدين دون علم أعرج". وهكذا انتقد هذا العالم الهذيان المرعب الذي ساد عصرًا كاملاً، انتقادًا لطيفًا. ولا أدري ماذا كان سيقول لو شاهد من هو أعمى وأعرج في الوقت نفسه من بعض معاصرينا الحاليين"[1].

إن العلم والدين شيئان متلازمان، لكن ما يجب أن يتيقن منه كل طالب علم، أن ما يكتنزه القرآن من أسرار لا يمكن لعلم بشري أن يرفع عنه الستار. فالعلم بما يكشف عنه من حقائق يمكن له أن يسهم بشكل فعال في فهم القرآن، وذلك بتوسيعه لمفاهيم آياته المتجددة معانيها مع تجدد علم الإنسان. ففي الآيات الكونية التي تشكل أهم مواضيع البحث والتفكر، نجد القرآن يخاطبنا فيها بأسلوب تأمّلي عن طريق ضرب الأمثال، والهدف من وراء ذلك الدفع بالقارئ إلى نهج طريق البحث النظري المفضي من خلال التفكر العقلي إلى الاطمئنان

إذا كنا وضعنا نصب أعيننا إظهار آفاق اليقينيات العلمية عن طريق إبراز مظاهر الإعجاز في القرآن بتجلي معانيه مع تجدد علم الإنسان، فليس من أجل التباهي بمفاخر الكتاب والتطريب، ولكن من أجل استنهاض الهمم للبحث والتنقيب.

القلبي الذي به يحصل اليقين.

وهذا يُظهر حاجة الباحث العلمي إلى الاستئناس دومًا بالقرآن، لكن ما يسجل في كثير من مواضيع البحوث يعكس غير ذلك، حيث نجد الباحثين يحتجون في قضايا كثيرة بالعلم على القرآن، فيهيمون في متاهات تبعدهم تكاليفها كل البعد عن الحقيقة التي يرمي إليها الخطاب القرآني. فنجد الباحث من أجل إثبات تصورات بشرية، يحمّل النص القرآني فوق ما يتحمل ليطابقه مع التفاسير التي جاء بها العلم لظاهرة كونية معينة. وهذا من شأنه أن يوقع الباحث في مأزق الإساءة للقرآن، لأنه بفعله هذا، إنما يكون أقحم القرآن في سباق خاسر وراء العلم واهمًا أنه بليّ أعناق الآيات وإخضاعها للتصورات البشرية يكون أظهر السبق العلمي للقرآن، بينما هو في الحقيقة إنما يكون دافع عن تفاسير اجتهادية غالبًا ما تجدها متغيرة.

فهذا المسار الذي عليه مآخذُ كثيرٍ من الناقدين يجب أن يصحَّح بالضوابط العلمية والشرعية، لأن الهرولة وراء توظيف كل ما أظهره العلم من حقائق في تفسير القرآن مثلاً، أو استعمال النصوص القرآنية الاستعمال المجاني لتبرير سبقها العلمي، هو خوض غير مجدٍ في التأويل. فالعلم البشري وُضعت مصطلحاته بتصورات عقلية محددة المعنى، على خلاف النصوص القرآنية التي تحتمل كلماتها أكثر من معنى. الشيء الذي يمنع أيَّ تفسير بشري لأي ظاهرة علمية من أن يرقى إلى مستوى التفسير الحقيقي للآية القرآنية، بل كل ما يمكن أن يصل إليه إنما هو ملامسته لجوانب بعض معانيها الخفية.

وعليه فقراءة النصوص القرآنية خارجًا عن سياقها "المثالي" الذي به يخاطب الله تعالى الإنسان في الكونيات، لا يعرّض الباحث فقط للتقليل من شأنها الدلالي، بل يجعله من خلال انسلاخه عن أبعادها الشمولية مجانبًا لحقائقها اليقينية. كما أن ظن آخرين بأن تفسير الظواهر الكونية لا يمكن أن يُستنبط إلا من تعاليم القرآن خطأ ووهم كبير، لأنه ليس فقط يسُد أمامهم باب البحث النظري والمخبري الذي فتحه لهم القرآن، بل ودعاهم إلى ولوجه، بل يعرّضهم أيضًا إلى النهل من مزاعمَ وتآويلَ ليس لهم عليها أي دليل.

فكلمات القرآن لا يمكن تحديد معانيها بالتعريف المرجعي كما هو معمول به في العلوم الطبيعية التي حُددت كلماتها في قواميس العلوم بإجماع العلماء، لأن من معالم كلمات القرآن، التنزه عن التحديد في المكان والزمان. والظن بأن المعنى الحقيقي لكلمة من كلمات الآيات الكونية التي وردت في القرآن هو ما فهمناه فقط وهمٌ كبيرٌ وتطاول على هذه الكلمات التي مصدرها من الله الذي ليس كمثله شيء. فكيف بكلامه الذي لا تنقطع عجائبه ولا تنقضي غاياته أن تنحصر معانيه في تصوراتنا المحدودة؟ هذا عن الآيات المشاهدة أو المعقولة، فما بالك بالآيات الغيبية التي ليس للباحث عليها أي تصور حسي أو عقلي وهو يخوض فيها بمعطياته العلمية؟!

ومن هنا، إذا كنا وضعنا نصب أعيننا إظهار آفاق اليقينيات العلمية عن طريق إبراز مظاهر الإعجاز في القرآن بتجلي معانيه مع تجدد علم الإنسان، فليس من أجل التباهي بمفاخر الكتاب والتطريب، ولكن من أجل استنهاض الهمم للبحث والتنقيب. لأن استظهارنا لما جاء به القرآن من إعجاز، القصدُ منه أن يترجم على مائدة الإنجاز عملاً تتكامل فيه شمولية القرآن تكاملاً يعيد ذلك الماضي المشرق الذي كان فيه الفقيه عالمًا والعالم فقيهًا.

ففي هذا الماضي المشرق لأمتنا، ما كان العالَمَ الإسلامي ليسبق إلى تأسيس الجامعات في القرن الثامن الميلادي في قرطبة وفاس وتونس وبغداد

hiramagazine.com

لولا وجود تلك النظرة الشمولية لأبعاد الحياة المبنية على تحرير الفكر من قيود الاستهلاك، وإقحامه عالم البحث والاجتهاد في مضامين كل إنجاز وعواقب كل إبداع. بذلك تضاعف البحث العلمي وظهرت الفرق والتيارات المتنافسة التي ساهمت في بلورة العلوم، وعملت على اكتشاف آيات الله التي هي جزء من عبادته. فاقتحم الإسلام ساحة العلوم الفسيحة من مختلف أبوابها، واضطر العلماء -لضرورة فهم القرآن وتفسيره- إلى البحث في علوم الرياضيات، والفلك، والطب، والطبيعيات والهندسة وغيرها، كما تطورت مناهج الاستقراء والاستنباط والتوثيق لما في ذلك من ضرورة لضبط العلوم وتدقيقها. واستُعمل المنهج التجريبي للاستدلال على صحة الأشياء بالملاحظة والفرضية والتجربة والبرهان عملاً بقوله ﷻ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(النمل:٦٤).

وهذا هو الأصل الذي يجب أن ترتبط به الفروع، كمثل الشجرة؛ الثمار في الأغصان تنمو وتنضج من الجذور الثابتة في السيقان. فنحن اليوم وأمام هذه القطيعة المأساوية مع أمجاد ماضينا المشرق من جهة، ثم أمام هذا الزخم الهائل من المعلومات والإنجازات الوافدة علينا من كل جهة وصوب، لا يمكننا أن نواكب السير إلا بإعادة ربط الأواصر مع ماضينا انطلاقًا من وعي واقعي بمفهوم ذلك التحدي الذي لا بد هو آت. فنهيئ أنفسنا بالخروج من نفق الاستهلاك المعرفي إلى فضاء البحث العلمي، لطرح البديل داخل هذه المتغيرات العالمية قصد إيجاد الحلول المناسبة لما يعيشه العالم من إفلاس في المقاصد نتيجة الفراغ الروحي، وإعادة الاعتبار لمكانة العلوم حتى تتحقق نظرة الإسلام العالمية ويتوضّح نهجه المتميز في تعليم أسس العلم ومقاصده. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

(١) الموازين أو أضواء على الطريق، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١١، ص:٩٩.

أشواق الأرض

جرداءُ جدباء هذه الدنيا؛
بلا روح غدتْ،
وبلا معنى باتتْ،
وإلى نقطة "اللاّجدْوى" انحدرت...
ولكنها، لا زالتْ مفعمة الرؤى،
متـرعة الأشواق...
لزرقة السماء تتطلّع،
وإليها ترنو، ولها تشتاق.

* * *

أديب إبراهيم الدباغ*

مرآة الروح

لا زلنا نبحث من بين المفكرين عمّن تشكّل لنا أفكاره مرآة نُبصر من خلالها أرواحَنا في عذاباتها وأوجاعها وأحزانها، ولهيب أشواقها، وحرقات حنينها لمنزلها الأول وموطنها الأعلى، وتُسمِعنا صرخات جوعها وعطشها، وأنين حرمانها من كل ما يعلو بها ويخصب مرابعها.

وهذه "الأفكار المرآة" هي التي تجذبنا نحوها وتشُدُّنا إليها، وتستحوذ على أذهاننا ومشاعرنا، لأننا نجد فيها أنفسنا عارية من كل لباس إلا لباس الحقيقة. وهذه "الأفكار المرآة" التي نرى فيها أرواحنا كأفراد، ونرى فيها روح الأمة وهي تكافح للخروج من مقبرة الزمن العقيم، لتستأنف حياة روحية جديدة، ودورة حضارية ناهضة، نكاد لا نراها إلا في قلّة قليلة من المفكرين في هذا الزمن الحسّي الثقيل، ومن هؤلاء القلة المفكر "فتح الله كولن". وكأن الأقدار كانت قد خبّأته في مطاوي الأيام، ثم بعثته في هذا الزمن، ليكون واحدًا من نصراء الروح في الأمة والإنسان.

و"كولن" نفسه مارس الحياة الروحية العالية، واتخذها منشطًا لقواه الفكرية والدينية، كما أنه ركز على الضبط الذاتي، ووحدة النفس والذهن، ورأى في الشتات الذهني والنفسي ضياعًا للروح.

و"كولن" لا يعطينا أفكارًا جاهزة نقف عندها ولا نتخطاها، بل هو ينهضنا لنفكر معه ونشاركه التفكير، وربما استطعنا أن نكتشف أفكارًا مرادفة -من خلال مشاركتنا له- صمت عنها ولم يبدها لنا لسبب من الأسباب، أو أنه قد وصل في استبحاره الروحي إلى نقطة لم تعد الكلمات تسعفه للتعبير عنها. وأفكار "كولن" لكونها حارّة ولاهبة فهي قابلة للحراك وقابلة للاتساع والامتداد إلى آفاق حياتية متشعبة الاتجاهات، مما يجعلها تمضي مع الحياة حيث ما مضت الحياة بها، وتمضي مع الإنسان أيًّا كان هذا الإنسان، مهندسًا أو طبيبًا أو عالمًا أو رياضيًّا أو أستاذًا أو فنّانًا أو موسيقيًّا

أو عاملاً أو رجل دين أو صوفيًا... فهذه الأفكار لها من قوة الإشعاع ما يجعلها قادرة على بث الحيوية في الحالات الذهنية لكل أولئك الرجال الذين ذكرناهم آنفًا، إنها تحرك شهية أذهاننا كما تحرك رائحة الطعام شهيّةَ الجائعين.

فجوعنا للفهم الشامل والعميق، والإدراك السليم، من أكبر المحفزات لتنشيط العقل وتفعيل قوى الذهن. فيدفعنا ذلك إلى المزيد من سبر أغوار الروح، وقراءة ذاكرة الأمة وذاتها بمفاصلها المختلفة، والإيغال في تاريخها الروحي بكل معطياته. فالأمة من دون هذه الذاكرة الروحية تضيع وتضل وتغترب، حتى لتنكر نفسها، وتتوه عن ذاتها، فلا تفتأ تمارس الفهم بأدنى مستوياته فيكون عائقًا عن نهوضها وتقدمها. فالتوتر الذهني الدائم، والقلق الروحي المستمر، مؤشر جيد على أن هذه الأمة بدأت تتحسس وجودها، وتتلمس مكامن ذاتها. وهما أولى درجات قوة الفهم، وعمق الإدراك، وسعة الخيال. وهذا الخيال هو الذي يساعد العقل على الحصول على مدركات جديدة، تزيد في شحنه وقوة تفكيره كيما يواصل البحث عن الحقيقة في الجانب الأعظم والأرفع من الكيان الإنساني الذي تسكنه الروح. وهناك سيجد معناه الإلهي الذي يعطي للوجود معنى، وللحياة مغزى، فيغدو منافسًا من غير هدف مسبق للوقوف بالضد من الإلحاد العقلي، والجحود الاعتباطي، والتشكك العبثي. كما أن إيمانه هذا، يجعله أكثر وثوقًا بمدركاته العقلية، فيأتي كلامه في أرواح الآخرين كتيّار كهربائي يمس أخفى خفايا الروح، ويعمل على تنشيط خلاياها النائمة، وإيقاظ استشراقاتها الهاجعة... فما من أحد يجرؤ بعد ذلك على التشكيك في أمانته الفكرية، وفي صدق مقولاته الإيمانية. فكما نفزع ونروع إذا نظرنا في المرآة ولم نجد أثرًا لوجوهنا فيها، كذلك نفزع ونروع عندما نقرأ بعض الأفكار وهي لا تعكس لنا شيئًا من آثار خالق هذا العالم. وهذا الخوف والروع دليل إيمان صادق وحقيقي ينبعث من كل الكينونة الإنسانية لا من جزء منها، وكل الكينونة تتشربه وتعيش به، وتعيش لأجله.

إن إدراكنا للعالم حسيًا وعقليًا، ليس هو منتهى كل إدراك؛ فالعالم في نظر الروح ليس هو الأكوان التي تحاصر وجودنا الإلهي وتمنعه من الامتداد إلى خارجها، بل العالم كما تراه الروح وتريد أن ترياه، هو عالم فوق هذا العالم، وهو كون آخر أعظم سَعَة وأكثر امتدادًا، وأشفُّ جسمانية، وأضوأ أنوارًا... وهذه البصيرة الروحية الأعماقية والامتدادية، هي التي ينطلق منها رجال الروح، ليعكسوا صورها في مقولاتهم وكتاباتهم.

فكم يكون "رجل الروح" عظيمًا إذا هو وقف أمام الجموع صارخًا ومناديًا:

إليَّ أيها الإنسان، يا حصير الحسيَّات، يا سجين المحدودات، يا كليل الخيال، يا قاصر الإدراكات، يا أسير الهابطات، يا محجوب النظر، يا موقور السمع، يا غارقًا في التفاهات، وعائمًا في السطحيات! أما آن لك أن تقوم، والعاليات تروم، والقمم الشُّمَّ ترود، وروحك تلاحق، وخيالك تسابق، ورؤاك تسامي، وأشواقك تُسَامِت؟ أم أنت ليل بلا فجر، وظلام بلا ضوء، وهبوط بلا صعود، ونوم بلا قيام، وجسم بلا روح، وقلب بلا شوق؟

و"كولن" في معظم كتاباته، إنما يريد أن يشعل ثورة في روح الأمة لكي تنهض من جديد. وهذه الثورة هي أولى الخطوات في بناء حضارة إيمانية تقوم على أسس من "معرفة الله"، وإنه ليأمل من الأمة أن تحاول بكل جهدها الخروج من زمانها الفارغ المفجع، وتنهض لإدارة المحركات الروحية المتوقفة عن العمل منذ زمن. فالانهيارات التي اعترت حياة الأمة لعقود كثيرة، إنما هي انهيارات روحية قبل أن تكون انهيارات عقلية أو اجتماعية أو سياسية. إن الانسحاق الروحي الذي خلّفته فيه معاول الهدم من كل جانب، هو سبب الكوارث التي شهدتها الأمة وتشاهدها اليوم؛ فالمسلم الأنموذج الذي يسعى "كولن" إلى رسم ملامحه، ينبغي أن يتعلم كيف يعيش بذهنه وحدسه وخياله وجسمه وغرائزه في مملكة الروح، بحيث لا يبقى منه شيء يعيش خارج هذه المملكة. ■

(*) كاتب وأديب / العراق.

hiramagazine.com

د. محمد جكيب*

حضارة العبودية والإبداع والجمال

ما معنى أن يصنع الإنسان حاضرًا سعيدًا، وكيف يشيّده ويبنيه؟ وماذا يلزم تَوفُّره لتتحقق قيمة السعادة ببعديها المعنوي والواقعي؟ وهل تَتخذ السعادةُ في بعدها الجوهري منظارًا يَنظر الإنسانُ من خلاله لحاضره؟ وكيف يعي ثمرةُ شجرة الخلق أشواقَه للسعادة؟ وما الأفق الجلي المُشبِع لأفق انتظاره؟ بعبارة أخرى ما طبيعة الحاضر الجميل السعيد، الذي يتشوق إليه ابن آدم بكل وجدانه وكيانه، والذي يُشعِره بالاطمئنان حتى يمتلك عليه إحساسه كله؟ وهل من فرق بين إحساس الفرد، وإحساس الجماعة، وما تأثير ذلك في الوعي الفردي والوعي الجماعي، أين يتوقف الشعور بالأنا، ليبدأ الشعور الجمعي؟

في حياة الإنسان لحظات للتاريخ ناعمة دقيقة، لحظات حاسمة فاصلة تحتاج إلى اليقظة التامة للعقل والجوارح، لحظات ينبغي التقاطها والتمسك بها حتى لا تذهب أدراج الرياح سدى فتضيع ولا تُحَوَّل إلى فرصة تاريخية مغيّرة لمسار الإنسان والإنسانية تجاه الفائدة الجمة؛ وما أجمل لو صارت اللحظات فترةً تاريخية إيجابية محقِّقة للسعادة...

لحظات التاريخ الحاسمة قليلة، بل إن بعضها يصير منعَطفًا حاسمًا في حياة أمة من الأمم وشعب من الشعوب. فإذا لم تكن هذه الأمة أو تلك على أهبة الاستعداد الروحي والذهني، وفي أعلى مستويات استشعار حقيقتها الوجودية، منتبهة إلى أبعاد هذا المنعطف أو ذاك، فالأكيد هو خسرانها اللحظة التاريخية وهي قليلة.

الحياة امتحان دائم في دائرة السنن الكونية، والغفلة تُذهب اللحظة التاريخية سدى. ووعي هذه الحقيقة يحتّم اليقينَ بضرورة الانتباه واليقظة المستمرة المتجددة، لأن تاريخ الأمم والحضارات من حيث السقوط والصعود ترجمة لمدى استشعار ذلك وتمثّله. فبزوغ شمس الأمم وأفولها هو ترجمان اليقظة أو الغفلة تجاه التاريخ. ولذلك فإن استمرار اليقظة والانتباه ضرورة. وما تراجُعُ الحضارات وانحطاطها ثم سقوطها سوى دليل على تعطيل هذه السنة الكونية، وعدم توظيف المحركات التاريخية في مناسباتها.

عرف تاريخ الإنسانية الكثير من لحظات القوة، التي وظف فيها الإنسان كل طاقته وقوته. وطاقة الإنسان لا حد لها، لكن إذا جرى توظيفها في غير مواطنها صارت طاقة مهدورة، وتحولت وبالاً يأتي على جوهر السعادة وينخر كيان الإنسان وينحرف به عن مقام كونه ثمرة شجرة الخلق. فعلى سبيل التمثيل لقد بنى الفراعنة "الأهرامات"، وصُرف في بنائها جهد عظيم قد يتجاوز حدود إدراك عقل متزن، وجاءت وفق نمط عجيب، لكن في الوقت نفسه لقد أُزهِق من أجلها أرواحٌ كثيرة، ولا شك أن تشييدها موسوم بالموت والدم والحزن والألم. فهل يرقى كل ذلك إلى الغاية من إنشائها؟ هل حققت جوهر السعادة؟ ألم يبن الفراعنة أهراماتهم لتكون مجرد قبور، ومجرد مكان لتقديس حياة الموت، وهي التي قامت في الأصل على أساس موت الحياة، بسبب ما أزهق من أجل تشييدها من أرواح؟

عند التنعم في هذا التشييد لا نعدم له فائدة مادية، إلا أن فائدته بالنسبة لكيان الإنسان وروحه محدودة رغم كل شيء. بعبارة أخرى إن الطاقة الإنسانية طاقة لا حدود لها، لكن السنة الكونية تريد صرف هذه الطاقة الهائلة في الاتجاه الذي يعمر الأرض، ويسخر الكون بكل مكوناته في الاتجاه الموجب، المشعر لنبض قلب الإنسان بأنه في انسجام وتناغم مع كل جزئيات الكون.

وقد ينظر للأهرام على أنها تجسيد لغياب القيم والأخلاق عن دائرة الفلسفات والرؤى الحضارية التي فكرت وأنجزت هذه الأهرامات؛ فهل تحققت للإنسان أحلامُه حول السعادة، يستوي في ذلك من عانوا وهم يشيّدون بحكم الحزن والألم الذي ذاقوه، ومن دُفِنوا في أعماقها، لأنها لم تنقلهم وأموالَهم إلى عالم البهجة الذي تشوقوا إليه، وتوهموا الأهرامات بوابة إليه.

تحري الإحسان في السلوك الحضاري ضرورة، والرقي إلى هذا المقام يكتمل إذا تزين بالقيم والأخلاق، وبكل العناصر الضرورية التي تجعله وسيلة تدل على مُوجِد الوجود ومدبره والآمر بتحري العبودية في كل سلوك، إذ القاعدة الموجِّهة لهذه الرؤية هي ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ﴾ ورؤية الله للسلوك المرتبط بالتمكين والتأييد، محصور في العمل المشروع الذي يتعارض بالمطلق والمنطق القاروني -نسبة إلى قارون- الذي ادعى العلم المطلق والمقدرة على الفعل والعمل، لكن النتيجة هي انخساف الأرض به وبما كسب إلى يوم يبعثون.

حجاب العادة والرتابة مانع يمنع الإنسان إدراك حقيقة العمل والسلوك وغايته، بل إن حجاب العادة يعمي قلب الإنسان عن الإحساس بذرات الوجود، فيتحول نبضه إلى مجرد حركة رتيبة لا تصدر حياة، وإلى مجرد حوادث خاوية لا روح فيها، ولذلك فإن كل فعل وعمل يتطلع إلى أخذ مقامه في نظام الانسجام السنني محكوم بربط كل شيء بنظام الكون وخريطته، في أفق التطلع إلى تحقيق التوازن.

قد يوهم قصور النظر -وهو ما رسخ في ظن بعض من ينتسبون إلى هذا الدين- أن الخشوع حال خاص بالصلاة، بمعنى أن الإنسان لا يكون في خشوع إلا عندما يكون في الصلاة. قد يكون هذا صحيحًا بالمعنى الاسمي للخشوع، لكن المعنى الحرفي يفتح أمام

hiramagazine.com

الإنسان آفاقًا واسعة للعيش في أفق الخشوع المستمر، من زاوية استحضار الله تبارك وتعالى في كل لحظة وحين وفي كل سكنة من سكنات القلب والجوارح. الصلاة عبادة يومية يأتيها المسلم خمس مرات في اليوم. إنها محور حياة المسلم في يومه، وهي تحتاج حتى تؤدي وظيفتها أن تكون الكمية والكيفية تامة كما يقول الأستاذ فتح الله كولن. لكن ألا ينبغي أن تكون كل تصرفات الإنسان المسلم المؤمن صلاة مستمرة، بل أن تكون حياته محرابًا يربط العبدُ فيه صلتَه بالخالق بصورة دائمة؟ ألا يعني ذلك أن الخشوع الدائم هو شعار حياة من يعلن انتماءه إلى هذه الدائرة المباركة؟

إن بناء الحضارة وتغيير الواقع والانبعاث من جديد ينبغي أن يكون ببعد عرفاني، أو على الأقل هذا هو الطريق الذي ينبغي السير فيه وتجريبه في الوقت الراهن بعد أن جَرّب الناس العديد من المناهج الغريبة عن الذات، والتي أكدت بعد مرور زمن أنها عاجزة عن تحقيق شيء، ولذلك فإن استحضار الأبعاد العرفانية في هذا المجال أمر حتمي. بغير ذلك لن تراوح الذات مكانها، وستظل تدور في دائرة مفرغة. فمقدمات التحول والتغيير تبدأ عندما يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بمفهوم العبودية المطلق، والطريق إلى ذلك هو انتشار روح الوعي بضرورة التحول وأهميته.

ما سر ما تَشرَّبه الصحابة الكرام ﷺ جميعًا في محضن رسول الله ﷺ وفي مدرسته، فتحولوا إلى حمائم تشع رقة تُطَمئِن النفوسَ والقلوب، وفي الوقت نفسه إلى صقور في ساحة بناء المجتمع الجديد وإعداده؟ يكمن السر فيما لقّنه إياهم وأرشدهم إليه معلمهم ومربيهم، وهو عمق العبودية المطلقة لله تبارك وتعالى. لقد أرشدهم بتوفيق الله ورعايته إلى سبل هذه العبودية ومسالكها بروح تقوم على العرفان والإحسان. وهي الروح التي سرت في مجتمع بكامله مسرى الدم من الجسد، والتي ظلت الأجيال اللاحقة تتغذى منها، وتستظل بظلها كلما اشتد لهيب الواقع وحَمِيَ وطيسُه، والتي ما تزال تنتقل من السلف إلى الخلف، والتي بنت حضارة من أهم الحضارات التي عرفتها الإنسانية.. حضارة تقوم على القيم والأخلاق وعلى العبودية المطلقة وعلى اعتبار السعي سبيلاً يدل على الله.. حضارة نجحت في تسخير الأسباب والواقع، لكنها لم تكن حضارة مؤسَّسَة على حب الدنيا وعلى اعتبارها غاية، بل حضارة تتطلع إلى الماوراء، ولا تتفاعل مع العالم المادي باعتباره غاية، بل في حدود دلالته على الخالق، وفي حدود كونه محرابًا تؤدي فيه الأرواحُ الصالحة صلاتها الدائمة المستمرة، المدّثرة بالخشوع.

الأرواح التي تصنع التغيير الحقيقي أرواح لا تَشبَع، لأنها تديم الحضور في محراب الصلاة المستمرة، وتنغمس في خشوع لا حد له، شعارها "هل من مزيد" من الفعل الإيجابي المفيد للإنسان في كل زمان ومكان.

همّ التغيير هم مضن، والشحنات الطاقية، التي تقي الذات من الفشل والانزلاق إلى دوائر التيه والرتابة كامنة فيما يجده المؤمن في حركيته من لذة وشوق، وفيما يجده من متعة في شدة الإصرار على الوصول، لأن الفعل البناء نصير العبد الملحاح، والإصرار يقود حتمًا إلى النجاح وتحقق الآمال، والله يحب العبد الملحاح، والمواهب الآتية إلى عالم الإنسان مرهونة بمدى الرغبة والحاجة وبمدى الشوق والاشتياق.

الرغبة في التغيير والانتقال من حال إلى حال، وتغيير المقامات يجب أن يحركه الشوق إلى إدراك الآيات، والاشتياق لإدراك الجمال في كل شيء. ورغبة الوصول إلى هذا المقام مرهون بالإتقان، لأن الإتقان مظهر من مظاهر هذا الكون. فأينما وجه الإنسان طرفه وأينما التفت وجد التوازن والإتقان، ووجد الجمال. ومِن حرصِ الإنسان على محاكاة هذا التوازن والإتقان والحرص على الإحسان يأتي الإتقان ويأتي الجمال. بعبارة أخرى على الإنسان الحركي الفعال تحرّي الجمال في كل فعل وتصرف.

الاشتياق إلى الجمال هو التعلق القلبي بصفة الجميل الذي يستمد منه كل جميل في هذا الوجود حظه الذي منحه الله له حسب وظيفته ودوره في الدلالة عليه، لأن الجمال المنتشر في هذا الوجود الفسيح انعكاس لاسم الجميل وظِلّ لِتجلّيه على الكون وما فيه من كائنات. والإعمار والحضارة مظاهر من مظاهر خلقه. فكما خلق الله الإنسان خلق كل أفعاله وتصرفاته، فإذا

hiramagazine.com

تحرى الإنسانُ الجمال والإتقان في الإعمار والحضارة بتوظيف الجهاز المودَع في عالمه المعنوي الموصولِ بصفة الجمال المطلق، أوصله ذلك إلى حضارة الجمال على الأرض. في ضوء ذلك فإن التغيير والبناء الحضاري والإعمار، إذ يتدثر برداء الخشوع في حاجة إلى لمسات الجمال حتى تُضفِي على الفعل والسلوك رونقًا يجلب إليه الأنظار وتتعرف عليه الأرواح الصافية فتحتضنه وتتبناه؛ لأن الذين أقبلوا عليه منذ الوهلة الأولى لمسوا فيه هذا البعد، فانقلب كيانهم رأسًا على عقب، وحوّلهم في مدة وجيزة إلى طاقة تنشر روح الدين ببعد جمالي لا مثيل له، بعد أن صار لهم مسلكًا يفوح منه أريج الجمال وعبق الإبداع.

في ضوء هذه الرؤية يتوجب تربية أجيال فائقة الإحساس بهذه الأبعاد، أجيال تفوح منها نسمات الإبداع والجمال حتى يصيروا مسكًا خالصًا صافيًا فواحًا يغادرون المكان، لكن أريج مسكهم المعتق يبقى إلى درجة أن يصير طابعًا من طبائع الأماكن التي مروا فيها، والأزمان التي عاشوا فيها.

إن استحضار مفهوم العبودية الحقة ضرورة وسبيل من سبل إدراك الإنسان لأبعاد الارتقاء في مقاماتها، وهي تعني كذلك أن يكون كيان الإنسان وسلوكه وتصرفه وقوله عبادة دائمة، واستحضارًا لها دون انقطاع. يردد بعض المتصوفة أن الله ينبغي أن يكون هو المقصود وهو الغاية، أي أن يُعبَد اللهُ لا رغبة في الجنة ولا رغبة في الخلاص من النار، فالمجتمع المستجيب لشروط التغيير هو المجتمع الذي سرت هذه الروح بين أفراده حتى تصير هي الطاقة المديرة لمحرك المجتمع. وعندما تصير كل حركة من حركات المجتمع وحركة أفراده، وتصير هي قيمه العامة وهي نبض الوعي والشعور والنفس، حينها فقط تنهمر المنح الإلهية وتتفق في صور مختلفة.

فرض الله خمس صلوات في اليوم، وهي خمس محطات في اليوم لاستمداد الطاقة اللازمة لربط الصلة بالله. وحضورها بهذا العدد وبهذا الكيف يؤكد بأنها مركز حياة الإنسان المؤمن، بمعنى أن حقيقة الإنسان هي أن يكون دائم الصلة بمدبر شؤون الكون. قد يصاب المؤمن ببعض الملل والفتور، لكن تجديد النشاط سنة كونية، والصلاة في بعدها الواسع مظهر من مظاهر مغالبة الفتور وتجاوز الملل، ولذلك فنداء الرسول الكريم ﷺ "أرحنا بها يا بلال" هو المفتاح السحري لتحقيق نشوة الانبعاث من جديد. ولا شك أن الراحة المقصودة هي الارتياح الروحي الذي يتيح للإنسان رؤية الأشياء والأحداث في دائرة سياقها الوجودي السنني من جهة كونها تزيد في نِسَب معرفته حق المعرفة، وأما تطويرها فهو تسخير الأشياء في صورة تعين ذوي الإدراك المنخفض على استشعار أبعاد العبودية. إن استعدادات الأفراد الاستشعارية واستعداداتهم الروحية متفاوتة، لكن تراكم الاستعدادات يوجد الكم الكافي ليتحرك المجتمع بأقدام واثقة نحو تحقيق العبودية.

النهوض والسقوط تفسير سليم لهذه الحقيقة التي تدل عليها السنن الكونية وتدل عليها لحظات تاريخ الاتصال القوي بالله. ولذلك فإن كل المراحل التاريخية تحتاج إلى دهاة يستطيعون بناء وعي جديد ينفث الحيوية والنشاط في كل أفراد المجتمع كل حسب استعداده وحسب قدرته ومؤهلاته الفكرية والمعرفية والنفسية والذهنية. لكن الجميع في نهاية المسار ينبغي أن يستشعر مسؤوليته الكبرى على تحقيق المعنى الكامل للثقة بالله، بل إن الإبداع في بعده المشروع وعالمه الفسيح هو لب هذه القضية.

الفرق والحد الفاصل بين الإعمار ولاإعمار، والحضارة ولاحضارة، والنهضة والانحطاط، هو فكرة إبداعية قابلة للتنفيذ، وهو كذلك فهم لسنن الكون على الوجه الصحيح، وارتفاع لمستوى الوعي بضرورة تسخير السنن الكونية. ولقد عاش العالم الإسلامي لحظات من تاريخه على وتيرة ركود كبير ناتج عن وجود قطيعة بين روح إنسانه وعجزه عن إدراك أبعاد الوجود وضرورة الحركية المستمرة الدائمة، لأن الحركة سنة وصفة لازمة لهذا الوجود. ومن يقف مكانه جامدًا لا يتحرك يموت، واليوم علينا أن نطرح سؤالنا الوجودي الكبير: في أيّ يتجه تعلُّقُنا؟ وأين يمتد تطلعنا؟ ■

(*) جامعة أبو شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة / المغرب.

hiramagazine.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل
شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye
HİRA DERGİSİ
İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز
فكرت يشار

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير أشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad.
No:1 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Phone: +902165221144
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر
٢٢ جـ- جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201000780841+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
2 Aylık-Arapça-Yaygın-Süreli,
İlmi, Kültürel

الطباعة

رقم الإيداع
١٣٠٦-١٨٧٩

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدًا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًّا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966507570864
hirasaudia@gmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

المؤمنون أمام واجب مقدّس، وهو أن يكونوا وسيلة لحب الله وتحبيبه إلى الآخرين،
ومن ثم لتنوير القلوب بنور الإيمان السامي..

كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن حول "الاستقامة في العمل والدعوة".

دار النيل : ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 50
www.hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

عمق النظر

اندهشْ وانتشِ، ثم انظر وتدبر
لتدرك الأعمق والأشمل
فإذا تعلمتَ كيف تدرك
استنار قلبك، وأضاء عقلك
واشتعل إلى الخالق شوقك
وكلما زدتَ إدراكًا زدتَ فهمًا
وهتفتَ "هل من مزيد؟"

* * *